الطوائف المغولية في مصر

وتأثيراتها العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية

في عصر دولة المماليك البحرية

(٦٥٨ - ٧٨٣هـ / ١٢٦٠ - ١٣٨١م)

دكتور

صلاح الدين محمد نوار

مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الدراسات العربية والإسلامية
جامعة القاهرة - فرع الفيوم

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي وشركاه

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه
٤٤ شارع سعد زغلول . الاسكندرية تليفون/ فاكس ٤٨٣٣٣٠٣

الطوائف المغولية في مصر

وتأثيراتها العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية

في عصر دولة المماليك البحرية

(٦٥٨ - ٧٨٣هـ / ١٢٦٠ - ١٣٨١م)

دكتور

صلاح الدين محمد نوار

مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية الدراسات العربية والإسلامية

جامعة القاهرة - فرع الفيوم

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حزى وشركاه

توطئــــة

موضـوع العلاقـات بيـن الممـاليك والمغـول[1] فـى عصـر دولـة الممـاليك الأولى بصفة خاصة، موضوع واسع متشعب وشائك فى آن واحد جرى التعرض له من المصادر القديمة سواء أكانت عربية أم فارسية بلغتها الأصلية أو المعربـة[2]، أو مصادر أوربية[3]. كما طرق الباحثون المحدثـون من العـرب والأوربييـن مـن ذوى

---

(1) المغول: تحريف لكلمة مانخول وهى إحدى قبـائل المغـول أو التتـار وكـان زعيم هـذه القبيلـة يسمى يسوغاى. وكان سليل عائلة نبيلة قديمة وهو والد تيموجين الـذى لقب فيمـا بعـد باسـم جنكيز خان وهو اللقب الذى لا يزال غير واضح المعنى لغوياً كما يرى المستشرق الألمـانى برتولد شبولر. شبولر : العالم الإسلامى فى العصر المغولى، تعريب خالد أسعد عيسى، تقديم د. سهيل زكار، نشـر دار حسـان (دمشـق) ١٤٠٠هـ/١٩٨٢م، ص٢٢. وهذا الـرأى مـن قبـل شبولر حول معنى لقب جنكيز خان لغوياً قوبل بمعارضة من قبل لأحد الكتاب المحدثين الـذى يذكر أن لقب جنكيز خان يعنى الخان العالمى. د. سعد الغامدى: الياسا: دراسة نقدية تحليلية، مجلـة كليـة الأداب جامعـة الإسكندرية، مجلد ٣٧ عـام ١٩٨٩م، ص٨٩. ويلاحـظ أن اسـم المغول كان يشار إليه غالباً باسم التتار وكان اسم يطلق على إحـدى مجموعـاتهم وهـى قبيلـة التتر التى عاشت فى الأصقاع الشرقية لآسيا. شبولر: العالم الإسلامي، ص٢٠.

(2) مثـلاً ابـن عبـد الظـاهر: الـروض الزاهـر فـى سيرة الملـك الظـاهر، تحقيـق د. عبـد العزيـز الخويطر، الرياض ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م؛ تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصـور، تحقيق د. مراد كامل، القاهرة ١٩٦١م؛ ابن حبيـب: تذكـرة النبيـه فـى أيـام المنصـور وبنيـه، ٣ أجزاء، تحقيق د. محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦، ١٩٨٢، ١٩٨٦م؛ المقريـزى: الخطـط، ط. بـولاق ١٢٧٠هــ، ج٢ ص٢٢٠-٢٢١ وصفحـات أخـرى؛ رشـيد الديـن الهمذانـى: جـامع التواريخ، نقله من الفارسية إلى العربية د. فؤاد الصياد، ط. بيروت (بدون تاريخ)؛ البدليسى: شرفنامة، ترجمة من الفارسية إلى العربية محمد على عوفى، جزءان (القـاهرة ١٩٦٢م)، حمد الله مستوفى: تاريخ كزيده، تحقيق ونشر ادوارد براون، جلد أول، ١٩١٠م.

(3) Bar Hebraeus, The chronography, trans. from ·vriac by Wallis Budge, London 1932.

الاهتمام بالدراسات المغولية والعلاقات المملوكية المغولية فى عصر دولة المماليك البحرية، وكانت لهم شرف السبق فى هذا المجال، وهى دراسات تمتاز بالجدية والأصالة، وكان لزاماً علىّ أن أنوّه عن بعض مما وقع فى يدى من أعمالهم، وما تسنى لى الإطلاع[1] عليه حسب باعى القصير فى هذه الدراسة.

ومما لا شك فيه أن العصر المغولى والعلاقات بين المماليك والمغول سواء مغول فارس أو مغول القبجاق (سوف نعرض لأصلهم وأقاليمهم والتعريف بهم فى حينه من هذه الدراسة)، تمثل فترة هامة في التاريخ الإسلامي، وهى بلا شك

---

[1] مثلاً د. جمال الدين سرور: دولة بنى قلاوون فى مصر، القاهرة ١٩٤٧م، دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره، القاهرة ١٩٦٠م، د. سعيد عاشور: مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، ط. بيروت ١٩٧٢م، د. السيد الباز العزينى: المماليك، ط. بيروت ١٩٦٧م، د. أحمد مختار العبادى: قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، إسكندرية ١٩٨٢م؛ د. أحمد عبد الكريم سليمان: العنصرية وأثرها فى الجيش المملوكى، ط. دار النهضة العربية بالقاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م؛ المغول والمماليك فى عهد دولة بنى قلاوون، ط. دار النهضة العربية، القاهرة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م؛ أيضاً د. حياة ناصر الحجى: العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، حوليات كلية الآداب-جامعة الكويت، الحولية الثانية ١٤٠٠ هـ/١٩٨١م ؛ د. فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى، ط. دار المعارف بمصر ١٩٧٦؛ د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ، القاهرة ١٩٦٠م؛ السلطان محمود غازان خان المغولى واعتناقه الإسلام، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م. ومن المستشرقين الذين تخصصوا فى هذا المجال ويشار إليهم بالبنان المؤرخ الروسى الكبير أ.ف. بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله من الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، ط. الكويت ١٤٠١هـ/١٩٨١م، كذلك المؤرخ اليهودى دافيد أيالون الذى يعتبر أفضل من كتب من المستشرقين عن دولة المماليك الأولى والثانية وعن تنظيم الجيوش المملوكية فى مقالات عديدة ضمن دراسات عن تاريخ مماليك مصر - ولعل أشهر مقالاته عن ذلك هو :

The Wafidiya in the Mamluk kingdom, No II in: Studies on the Mamluks of Egypt 1250-1517, London 1977.

فترة حافلة بالفرص الواسعة للمؤلفين والباحثين خصوصاً وأن تاريخ الشرق الأدنى الإسلامي فى علاقاته المختلفة بالمغول فى العصور الوسطى، ما زال بحاجة إلى مزيد من البحث والدرس التى يجب أن تقوم أو تستند على المعلومات التاريخية الصحيحة.

ومما يستلفت النظر أنه على الرغم من الدراسات العديدة والمتنوعة التى حظى بها تاريخ دولة سلاطين المماليك وعلاقاتهم بخانات مغول القبجاق أو إيلخانات[1] مغول فارس والتى أشرنا إليها آنفاً، إلا أنه يلاحظ أن هذه الدراسات قد اقتصرت على جوانب محددة أو معينة تخص العلاقات السياسية أو العسكرية أو حتى العلاقات التجارية القائمة بين سلاطين المماليك وإيلخانات مغول فارس[2] أو مغول القبجاق (مغول القبائل الذهبية) وعلى نشاط حركة جلب الرقيق من هؤلاء المغول بخاصة من بلاد القبجاق إلى مصر سواء بشكل فردى أو جماعى وانخراط هؤلاء العبيد أو المماليك فى سلك الجيوش الأيوبية ثم المملوكية وتكوين العديد من فرقهم منذ عهد السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الذي اكثر من شراء هؤلاء المماليك بعد أن تبين له فساد الخوارزمية، وذلك تمكيناً لنفسه فى ولاية العهد وجعلهم بطانته والمحيطين بدهليزه وسماهم البحرية[3] وهى تسمية سابقة على

---

(1) يطلق عليهم شبولر اسم الإلكخانات. شبولر: العالم الإسلامي، ص٩٤.

(2) يلاحظ أن موضوع العلاقات التجارية بين المماليك فى مصر والمغول بحاجة لمزيد من الدراسات.

(3) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٣٦،أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب، ج٦ ص٣٢٠،٣٣١.

عصره[١]. ولم تسلط هذه الدراسات أضواء كافية على التأثيرات التى أحدثها هؤلاء المماليك من المغول القبجاق أو الأويراتية أو مغول فارس الذين حُملوا إلى مصر مع تجار الرقيق أو الذين وفدوا إليها فى شكل جماعات بأسرهم خاصة منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس حتى نهاية دولة المماليك البحرية، من النواحى العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية، وبمعنى آخر لم تظهر أبحاث مستقلة قائمة بذاتها تلم بكل أطراف وجوانب المؤثرات المغولية على المجتمع أو الدولة المملوكية، وهو من الأهمية بمكان، خاصة وأن هؤلاء المماليك من المغول القبجاق والأويراتية أو الفرس بصفة خاصة (ومنهم شخصيات تولت السلطنة فى العصر المملوكى) كانوا عنصراً دخيلاً على رعاياهم فى مصر والشام حرصوا على الروابط التى كانت تربطهم بأصولهم من ناحية أخرى، ووجدوا فى الحفاظ على هذه الروابط ضرورة رئيسية للشعور بالأمان والطمأنينة داخل مصر والشام. وعلى هذا قامت دولة المماليك الأولى على أكتاف وسواعد عنصر المغول القبجاق كدعامة أساسية وهو ما أكدته غالبية المصادر الخاصة بهذا العصر.

وهذا يؤكد أن الدراسات الجادة التى تناولت هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر فى العصر الإسلامي لا تزال غير كافية، وأن المجال لا يزال خصباً لدراسات أخرى جادة، تتعلق بتأثيرات الأسر المغولية التى وفدت إلى مصر منذ عصر السلطان الظاهر بيبرس على الدولة المملوكية فى كل الجوانب خاصة وأن هؤلاء المماليك الجلبان أو الأجلاب[٢] - إذا ما صح التعبير - قد وفدوا أو جُلبوا إلى مصر وهم يحملون معهم عاداتهم وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية والحربية وقوانينهم

---

[١] د. محمد مصطفى زيادة: بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك، كلية الآداب- الجامعة المصرية، مجلد رقم ٤ عدد رقم ١ سنة ١٩٣٦م، ص٧٢؛ د. السيد الباز العرينى: المماليك، ص٥٦.

[٢] د. العرينى: المماليك، ص٥٤ معتمدا على مصادر.

المشهورة باسم الياسا بالإضافة إلى لغاتهم التى اعتادوها فى مواطنهم الأولى عند نهر الفولجا وسواحل البحر الأسود، ووضعوها فى مصر وتمسكوا بها بقوة وعضوا عليها بالنواجذ، رغم اعتناقهم الإسلام، ورغم أن معظم هذه العادات والنظم الاجتماعية والقوانين المغولية[1] يخالف أكثرها أحكام شريعة الإسلام[2]، وهو الأمر الذى تؤكده بعض المصادر[3]، فقد أخذ بها سلاطين المماليك وطبقات عديدة من المجتمع المملوكي وتأثروا بعاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم، بل وتأثروا أيضاً باللغة المغولية نفسها التى وجدت إقبالاً من بعض طبقات المجتمع

---

[1] راجع الدراسة القيمة لأحكام الياسا المغولية والمقارنة بينها وبين الشريعة الإسلامية للدكتور فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ، ص٢٣٧-٢٤٦؛ السلطان محمود غازان خان، ص٢٢-٢٣. معتمداً على مصادر فارسية وعربية؛ د. سعد الغامدى: الياسا؛ مجلة كلية آداب إسكندرية عدد ٣٧ عام ١٩٨٩م ص٧٧.

[2] راجع البحث القيم الذى كتبه د. سعد الغامدى: جوانب من حياة المغول المعيشية، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، عدد ٣٧ عام ١٩٨٩م، ص١٣١-١٧١. ويلاحظ أن هذا البحث اعتمد فى استقاء مادته التاريخية عن كتابى كاربينى Carpini، ربرك Rubruck. وهناك بحث آخر لنفس المؤلف تحت عنوان " بيئة المغول الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية، وهو لا يزال تحت الطبع؛ أيضاً د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ، ص٢٢٨-٢٦٣ (الفصل الثانى عشر). ويعتبر هذا الفصل من أروع وأفضل ما كتب عن تقاليد المغول ونظمهم الاجتماعية والحربية فى مواطنهم الأصلية فى منغوليا أو حتى فى المناطق التى اجتاحوها فيما بعد. راجع أيضاً ما كتبه برتولد وبصفة خاصة فى عهد أوكتاى (أوكداى) بن جنكيز خان (١٢٢٩-١٢٤١م) فى كتابه تركستان، ص٦٥٠-٦٥١. كذلك مقدمة د. يحيى الخشاب للكتاب جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذانى، ط. بيروت (بدون تاريخ)، ص٧-١١.

[3] مثلاً القلقشندى: صبح الأعشى، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب، ج٤ ص٤٧٤؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢١؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص١٨٢-١٨٣؛ ج٦ ص٢٦٨-٢٦٩.

المملوكي من أمراء ومن عامة الشعب في تعلمها وذلك طبقاً للنصوص التي انفرد بها بعض المؤرخين المماليك وعلى رأسهم المقريزي في كتابه الخطط[1].

وقد يبدو موضوع " المؤثرات المغولية لتلك الطوائف على دولة المماليك البحرية عسكرياً وسياسياً واجتماعياً ولغوياً وعمرانياً، يثير الدهشة لدى الباحث أو القارئ لتاريخ دولة المماليك الأولى الذي يدرك كيف استطاعت دولة المماليك التي قامت في مصر والشام منذ عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م أن تثبت أنها أعظم قوة معاصرة في العالم الإسلامي من المحيط إلى الخليج، واستطاعت هذه الدولة أن تسجل لنفسها في تاريخ الحضارة الإسلامية صفحات ذهبية تشع بين سطورها آيات المجد في كل الجوانب سياسياً وحضارياً، فتترك سلاطينها أمثلة رائعة لفنون العمارة والصناعة والزخرفة، وتميز عصرهم بالعمائر الدينية والمدنية التي أقاموها من مساجد ومدارس وخوانق وقيساريات، والتي أثرت تأثيراً كبيراً على حضارات وشعوب الدول الأخرى المعاصرة لها في مشرق الدولة ومغربها، فلا نستطيع أن نغفل الآثار والسمات المصرية المملوكية في الأبنية والأنصاب القائمة والرسوم على الجدران والفسيفساء والمساجد وشواهد القبور في دولة الأوردو الذهبية[2] (دولة مغول القبجاق المسلمة) في روسيا، والتي تظهر المؤثرات المملوكية كلما تقادم عليها الزمن، كما شيد المهندسون المعماريون المصريون الأبنية والصروح في بلاد القرم

---

[1] المقريزي: الخطط، ج٢ ص٤٠-٤١ أيضاً راجع بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج٩ تحقيق د. زبيدة عطا،(بدون تحديد تاريخ ومكان الطبعة) ص١٢٩،٢٧٢،٢٩١.

[2] الأوردو: لفظ مغولي أو تركي معناه المعسكر أو الجيش، والمراد به معسكر سلطان الدولة المغولية. د. مراد كامل في شروحه لكتاب تشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص٤ حاشية رقم (١).

وفى مدينة سراى (أو ساراى)[1] بركة عاصمة دولة الأوردو الذهبية[2]، وأحكمت الثقافة أو الحضارة المملوكية قبضتها على الشعوب المغولية على ضفاف نهر الفولجا[3]. فكيف يتأتى إذاً أن تؤثر العناصر المغولية القادمة من روسيا وغيرها على المجتمع المملوكى فى هذه الفترة؟ وهل كان هؤلاء المغول أصحاب حضارة قوية بحيث تؤثر على دولة المماليك؟ خاصة وإن كلمة المغول تثير دائماً لدى القارئ أو الباحث الإحساس بالخوف ومظاهر الرعب والدماء أو ترسم صورة أو لوحة رهيبة للتخريب أو التدمير وسفك الدماء الذى يصاحب غزواتهم الأولى فى هذه الفترة السابقة للعصر المملوكى وأثناء هذا العصر على النحو الذى صورته لنا المصادر الإسلامية وكذلك المصادر الصينية[4]، وأنهم مجرد شعوب همجية متبربرة

---

[1] فى صبح الأعشى: صراى. وهى مدينة عظيمة فى مستو من الأرض على شط نهر الأثل (نهر أتيل) من الجانب الشمالى الشرقى غربى بحر الخزر وشماليه، وبحر الخزر شرقيها بجنوبيها. ونهر الأثل التى تقع عليه عاصمة مغول القبائل الذهبية يجرى من الشمال والغرب إلى الشرق والجنوب حتى يصب فى بحر الخزر. القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٧. وهذا النهر يسميه الأصطخرى نهر إتل أو أثل ومنه اسم مدينة أثل التى تعتبر قصبه إقليم الخزر. الأصطخرى: مسالك الممالك، ط. ليدن (بريل) ١٩٢٧م، ص٣٣٠. ويسمى صاحب نزهة المشتاق هذه العاصمة باسم سراى. راجع الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة (بدون تاريخ)، ج١ ص٤٨٣. وهذه المدينة على حد قول أحد المستشرقين الألمان كانت بمثابة بوتقة انصهر فيها مغول روسيا بثقافتهم وعاداتهم داخل الحضارة الإسلامية فى غربى آسيا. شبولر: العالم الإسلامي، ص٣٩.

[2] شبولر: العالم الإسلامي، ص٩٤-٩٥.

[3] كانت مصر ترسل أيضاً الصناع الحرفيين والفقهاء إلى مغول القبيلة الذهبية، وكان لنشاط هذه الفئات الحرفى والدينى آثاراً هامة فى تطور وتحضر المغول فى روسيا. راجع شبولر: العالم الإسلامي، ص٩٥.

[4] بارتولد: تركستان، ص١٠٩.

بدائية لم تعرف الحضارة لهم طريقاً. وهذه النظرة تعتبر نظرة محدودة وضيقة ولا تعتمد على أسانيد تاريخية منطقية قوية أو صحيحة، خاصة وأنه وجدت قلة من المؤرخين على رأسهم المستشرق الروسي الكبير فلاديمير وفتشي بارتولد V.V. Bartold يرون أن الغزوات المغولية لمناطق الشرق الأقصى، والشرق الأدنى الإسلامي لم تكن سيئة إلى الحد الذى تصوره لنا المصادر الشرقية والغربية، بل على العكس بلغت الحضارة فى هذه المناطق فى عهدهم شأواً بعيداً من الرقى والتقدم، وأنه من خلال النار والدمار التى خلفتها فتوحاتهم، بزغت على العالم أنوار مشرقة فى عهدهم[1]. ولهذا فلم يكن مستبعداً أن يؤثر هؤلاء المغول، بعد جلبهم أو نزوحهم إلى مصر، على المجتمع المصرى فى عصر دولة المماليك البحرية على النحو الذى أكدته المصادر الإسلامية التى لدينا.

وهذا البحث محاولة متواضعة من جانبنا لإظهار مدى التأثير الذى أحدثه هؤلاء المغول -خاصة القبجاق والأويراتية أو الفرس منهم- على المجتمع المصرى المملوكى وإلى أى حد امتد هذا التأثير عسكرياً وسياسياً واجتماعياً وعمرانياً، ولكن قبل أن نشرع فى إيضاح هذه التأثيرات حرياً بنا أن نتحدث عن العوامل أو الأسباب التى دفعت هؤلاء المغول إلى النزوح أو الهجرة إلى مصر على شكل أفراد أو جماعات بأسرهم وبالتحديد منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس الأول والعوامل التى

---

[1] بارتولد: تركستان، ص١٠٩. ويؤيد هذا الرأى أستاذنا الدكتور فؤاد الصياد: المغول، ص٢. ويذكر هايد أن المغول لم يكونوا متخلفين أو همج إلى هذه الدرجة، فثمة حقيقة واحدة تكفى لإثبات الرأى الذى ذكره بارتولد، إنهم كلما استولوا على مدينة كانوا يراعون بصفة عامة سلامة الصناع والحرفيين من سكانها وينشئوا العديد من المستوطنات الصناعية وينقلون هؤلاء الصناع والحرفيين المهرة إلى أماكن مختلفة من إمبراطوريتهم الشاسعة. راجع هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا، مراجعة د. عز الدين فودة، ط. الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١، ج٢ ص٣٠٦.

دفعت سلاطين المماليك إلى استقدام مغول القبجاق وتشجيعهم لهم على الوفود إلى مصر بأبنائهم ونساءهم خاصة وأن دولة المماليك الأولى قامت على أكتاف هؤلاء المغول أو الأتراك القبجاق، ومن هذا العنصر كان السلاطين المؤسسون للدولة المملوكية وعلى رأسهم سيف الدين قطز، وبيبرس وقلاوون الألفى، فساروا بدورهم على نفس السياسة فى الاعتماد على بنى جنسهم من القبجاق والتى تتمثل فى العوامل العسكرية والسياسية والنفسية، بمعنى آخر إيضاح عوامل الطرد التى دفعت إلى هجرات أو نزوح أو وفود الأسر المغولية من أوطانها الأصلية وبخاصة من روسيا وعلى ضفاف نهر الفولجا والبحر الأسود، وهى عوامل سياسية واقتصادية خاصة بهؤلاء المغول، خاصةً فيما يتعلق بالخلاف السياسى والعسكرى بين مغول فارس ومغول القبجاق، والعوامل الخاصة ببيئة هؤلاء المغول فى جنوب روسيا، بالإضافة إلى عوامل الجذب[١] التى جذبتهم إلى مصر والتى أصبحت بالنسبة لهم ملجأ أميناً يعولون على ارتياده والإقامة به كبديل عن أوطانهم كما أوضحت بذلك غالبية المصادر المملوكية، فاستقروا فى مصر والشام واختلطوا بطبقات المجتمع المختلفة وظهر منهم السلاطين والأمراء والقادة العسكريين البارزين الذين ساهموا بصورة فعالة فى تسيير أمور الحرب والسياسة الداخلية والخارجية لمصر فى عصر دولة المماليك البحرية.

---

[١] جدير بالذكر أن هذه العوامل كانت تختلف من ناحية قيمتها كعوامل إيجابية مشجعة أو كعوامل سلبية قاهرة بالنسبة للمغول أنفسهم.

أولاً : العوامل التى أدت إلى وفود أو نزوح المغول إلى مصر منذ عهد الظاهر بيبرس الأول البندقدارى (منذ النصف الثانى من القرن ٧هـ / النصف الثانى من القرن ١٣م):

شهد القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وفود العديد من المماليك من عنصر المغول القبجاق أو الفرس أو الأويراتية[١] مع غيرها من عناصر أخرى إلى مصر أواخر العصر الأيوبى وخلال العصر المملوكى خاصة أثناء فترة دولة المماليك البحرية، وقد جاءت هذه العناصر عن طريقين : الأولى فى شكل مماليك رقيق بطريق الشراء، أطلق عليهم فى كثير من الأحيان اسم الجلبان أو الأجلاب[٢] منذ العصر الأيوبى وذلك عندما أقبل أبناء الملوك من الأيوبيين على اقتناء أعداد كثيرة من هؤلاء الرقيق لإنشاء الجيوش اللازمة فى حروبهم الداخلية أثناء الصراع الأسرى بين أبناء البيت الأيوبى، ولاسيما الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل الذى أكثر من شراء المماليك ومنهم مغول القبجاق بصفة خاصة بعد أن تبين له فساد الخوارزمية وعدم الاعتماد عليهم، ومنهم كوّن فرقة المماليك البحرية والتى على أكتافها قامت دولة المماليك البحرية أو الأولى ذاتها، ثم سار سلاطين المماليك على نفس النهج فى شراء مماليك جدد وتربيتهم طبقاً لنظم عسكرية معينة.

---

(١) سوف نتعرض لتعريف هذه العناصر وأسباب مسمياتها فى موضعها المناسب من هذه الدراسة.

(٢) ابن شاهين الظاهرى: كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشر بول راويس، باريس ١٨٩٤م، ص١١٦، أيضاً د. السيد الباز العرينى: المماليك، ص ٥٤. معتمداً على نص كشف الممالك.

أما الطريق الثانى الذى أتوا به إلى مصر فقد جاء فى شكل لاجئين أو منفيين بأعداد كبيرة هاجروا إلى دولة المماليك ليجدوا فيها مستقراً ومقاماً نتيجة للصراعات بين دول المغول المختلفة بعد وفاة جنكيز خان أو بين القبائل المغولية بعضها البعض أو بين إيلخانات أو قانات المغول فى فارس بعضهم البعض، وبصفة خاصة ما حدث من تطورات واضطرابات داخلية فى دولة مغول فارس بعد اعتناق محمود غازان إيلخان مغول فارس الإسلام عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م[1]، بعد أن غدا بقائهم فى أوطانهم أمراً مستحيلاً، أى لأسباب سياسية بحتة (بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية)[2]. كما أكدت بذلك غالبية المصادر المملوكية[3].

---

(1) للإستزادة عن اعتناق محمود غازان للإسلام راجع الرواية القيمة التى أوردها المؤرخ المجهول: تاريخ سلاطين المماليك، نشر زترشتين، ط. ليدن ١٩١٩، ص٣٤-٣٥، البدليسى: شرفنامة. نقله من الفارسية إلى العربية محمد على عوفى، ط. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٢،ج٢ ص١٥-١٦، أيضاً البحث القيم الذى كتبه العالم الجليل الدكتور فؤاد الصياد: السلطان محمود غازان خان واعتناقه الإسلام، ص١-٧١. معتمداً على مصادر فارسية وعربية وأجنبية.

(2) سوف نعرض لهذه العوامل بالتفصيل فى حينها.

(3) مثلاً ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٥-١٣٧، وبيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٠١، ٢٩١-٢٩٢؛ مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٨-٤٠؛ أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع المعروف باسم الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس رويمر، ط. القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠، ص١٥،٧٢،١٢٨-١٢٩،٣٠٢-٣٠٣؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مجلد ٨ تحقيق د. قسطنطين رزيق، د. نجلاء عز الدين، ط. بيروت ١٩٣٨، ص٢٠٣-٢٠٤.

وتتمثل هذه الأسباب السياسية عندما قسم جنكيز خان(١) (٦٠٣-٦٢٤هـ/١٢٠٦-١٢٢٧م) الخان أو القآن(٢) الأعظم للمغول قبل وفاته، إمبراطوريته المترامية الأطراف بين أبنائه الأربعة(٣) : جوجي وجغتاي(٤)

---

(١) الإسم الحقيقى لجنكيز خان هو تيموجين خان. وفى الاجتماع الذى حضره زعماء ورؤساء العشائر والقبائل المغولية المعروف باسم القوريلتاى منح لقب جنكيز خان أى الخان العالمى. وهو الاسم الذى أصبح معروفاً به لدى المؤرخين القدامى والمحدثين. راجع د. سعد الغامدى: الياسا: دراسة نقدية تحليلية- مجلة كلية آداب الإسكندرية، مجلد رقم ٣٧ عام ١٩٨٩، ص٨٩. وللاستزادة عن القوريلتاى راجع نفس المرجع السابق، ص٩٤-٩٦ معتمداً على مصادر ومراجع أوربية.

(٢) تعارض إحدى الدراسات المستنيرة حول المغول وقوانين الياسا المغولية رأى الجوينى صاحب كتاب جهانكشاى حول لقب قاآن. ويرى صاحب هذه الدراسة أن لقب قاآن لم يكن من الألقاب المعروفة وقت جنكيز خان لأنه يعنى خان الخانات، وأن أول من لقب بهذا اللقب ابنه وخليفته أوكتاى لكى يفرق بينه وبين الأمراء الأخرين من أسرته الذين تلقب كل واحد منهم بلقب خان بحكم مركزه كخان على ما تحت يده من مملكة واسعة، ينوب بشكل نظرى عن الخان الكبير أو القآن. راجع د. سعد الغامدى: الياسا، مجلة آداب الإسكندرية، عدد ٣٧ ص٩١. ويبدو أن د. الغامدى أعتمد فى بناء وجهة نظره على كتاب رشيد الدين: جامع التواريخ، تعريب د. فؤاد الصياد، ط. بيروت، بدون تاريخ ص١٦ وما بعدها. إلا أن د. الغامدى لم يشر إلى هذا.

(٣) كان هؤلاء الأبناء من زوجته يَسُونجين بيكى وكانت أحب وأقرب زوجاته إليه، بل كان يفضلها عليهن جميعاً، وكان يعهد إليها بجلائل الأعمال، كما كان يعتمد على أبناءه اعتماداً كلياً فى إدارة إمبراطوريته الواسعة. راجع رشيد الدين: جامع التواريخ، ص١٦-١٧؛ أيضاً د. فؤاد الصياد: المغول، ص١٠٩. معتمداً على مصادر لم يذكرها.

(٤) كان من نصيب جغتاى بلاد الأويغوريين وأقاليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنه. راجع شبولر: العالم الإسلامى، ص٣٤؛ د. فؤاد الصياد: المغول، ص١١٠. معتمدان على مصادر لم يذكروها.

وتولوى[1] وأوكتاى (أو أوكداى) قاآن[2]. وكان من نصيب جوجى، أكبر أبناء جنكيز خان البلاد الواقعة بين نهر أرتش (أو أريتش) والسواحل الجنوبية لبحر قزوين[3]، وبالتحديد مناطق السهوب الممتدة من أراضى الفولجا الوسطى والعليا ومنطقة شمال شرق البحر الأسود حيث أقيمت دولة هناك عرفت باسم دولة مغول القبجاق[4] أو القبجق أو القفجاق[5] (أو دشت القبجاق كما تسميها المصادر

---

[1] كان تولوى الإبن الأصغر لجنكيز خان. وطبقاً للتقاليد المغولية القديمة كما يذكر مؤرخ المغول رشيد الدين كان الابن الاصغر هو الوريث الرئيسي والوصى على أملاك والده، أى يشرف على الموطن والمقام الأصلي وبيوتات الوالد. راجع رشيد الدين: جامع التواريخ، ص١٦. ولذلك أصبحت الأراضي المغولية الأساسية من نصيب تولوى وتتمثل فى المنطقة الأصلية لأجداد جنكيز خان أى وديان نهر كرولبين وأونن وأرخن ومنطقة قراقورم. واستمر تولوى يحكمها مدة عامين (٦٢٤-٦٢٦هـ/١٢٢٦-١٢٢٨م) بمساعدة بعض المستشارين حتى انتخب خان جديد خلفاً لجنكيز خان. د. الصياد: المغول، ص١١٠.

[2] القسم الذى خص أوكتاى قاآن أقل من نصيب إخوته وينحصر فى مناطق جبال تاربّاجاى وأطراف بحيرة الأجول وحوض نهر إيميل الذي يصب فى تلك البحيرة ويقع غرب منغوليا فى أقصى الشرق. شبولر: العالم الإسلامى، ص٣٤؛ د. الصياد: المغول، ص١١١.

[3] يلاحظ أنه لما كان جوجى قد توفى قبل موت والده بحوالى ستة أشهر، فقد قرر جنكيز خان أن تكون هذه المناطق من نصيب باتو بن جوجى. رشيد الدين: جامع التواريخ، ص١٢١؛ د. الصياد: المغول، ص١١١؛ شبولر: العالم الإسلامى، ص٣٤.

[4] هكذا ورد اسمهم فى بعض المصادر المملوكية مثل: مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٨٢؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٦؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢١؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٢٥٥؛ ص٢٦٤.

[5] هكذا ورد اسمهم فى مصادر أخرى مثل ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، تحقيق د. مراد كامل (الطبعة الأولى) القاهرة ١٩٦٠م ص٤٦؛ ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص١٧٢؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٩ مجلد١ ص٣٨١.

المغولية[1]) ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية Golden Herde نسبة إلى خيّم معسكراتها ذات اللون الذهبى[2]، وكان غالب أهلها من الأتراك والتركمان[3]، وبذا امتزج التتار أو المغول بالترك فى هذه البلاد[4]. وهذه العناصر (القبجاق) هى التى ستكون العنصر الرئيسي للجيش المملوكى وكان منهم سلاطين المماليك البحرية فيما بعد – وكما سيذكر في حينه – ولم يلبث الإسلام أن انتشر بين ذلك الفرع من مغول القبائل الذهبية. وعلى الرغم من أن المصادر التى لدينا لم توضح الظروف التى أحاطت باعتناق القبائل المغولية الإسلام أو الأسباب التى أدت إلى ذلك، إلا أن

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، ص٦٧-٦٨، أيضاً أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٤٣ح٢.

(٢) شبولر: العالم الإسلامى، ص٣٩؛ د. فؤاد الصياد: المغول، ص١١٠؛ د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص٣٣٣. معتمدين على مصادر لم يذكروها. وتذكر إحدى المؤرخات المحدثات الجليلات فى تحقيقها لكتاب زبدة الفكرة لبيبرس الدوادار أن القبجاق طائفة من القبائل التركية تنسب إلى Kaki أو kakbuk وكانوا يعيشون على طول نهر Imak ، ثم هاجروا إلى إمبراطورية المغول بالقرن الذهبى. وورد ذكرهم لأول مرة فى التاريخ أعوام ٥١٤م، ١١٢٠ -١١٢١م، كحلفاء لجورجيا وتأثروا بالإسلام والمسيحية. راجع د. زبيدة عطا فى تحقيقها لكتاب زبدة الفكرة، ج٩ ص٥٥ حاشية رقم (١). وراجع الدراسة الشيقة التى كتبتها د. زبيدة عطا ضمن دراستها فى كتاب: الترك فى العصور الوسطى، ط. دار الفكر العربى (بدون تاريخ). ص٨-٩. معتمدة على مصادر ومراجع.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٦.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى، ج٤ ص٤٧٤. وتذكر إحدى المؤرخات المحدثات أن القبجاق أطلق عليهم البيزنطيون اسم الكومان Comans، وأنهم ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى بدأت هجرتهم الكبرى فاندفعوا نحو أراضى الغز الذين اضطروا تحت ضغط القفجاق عليهم فى الشمال إلى الاتجاه نحو الجنوب والغرب، وأن قبائل القفجاق لم تكن وحدة سياسية متحدة بل كانت وحدات متفرقة برأس كل منها خان، وأنه نتيجة صلة القفجاق بالخوارزمية وتأثرهم بالمدنية الإسلامية فإن أعداداً كبيرة منهم دخلت الإسلام فى النصف الثانى من القرن ١٢م. د. زبيدة عطا: الترك، ص٢١-٢٢.

إحدى المؤرخات المحدثات فى دراسة لها عن تاريخ الترك فى العصور الوسطى، تذكر أن اعتناق مغول القبجاق للإسلام تم نتيجة لصلتهم بالخوارزميين وتأثرهم بالمدنية الإسلامية فى النصف الثانى من القرن ١٢م (النصف الثانى من القرن ٦هـ)(١). واعتنق زعيم هذه القبائل بركه أو بركاى خان(٢) الإسلام قبل اعتلائه العرش(٣)، فكان أول حاكم مغولي يعتنق الإسلام، الأمر الذى ترتب عليه ازدياد أواصر الصداقة والتقارب بين مغول القفجاق والقوى الإسلامية المجاورة وبخاصة مع دولة المماليك البحرية، وازدياد العداوة والصراع بين مغول القبجاق وبقية طوائف المغول الوثنيين(٤) وزعمائهم وعلى رأسهم هولاكو(٥) إيلخان(٦) مغول فارس.

---

(١) د. زبيدة عطا: الترك، ص٨-٩،٢٢. معتمدة فى ذلك على رأى المؤرخ الفرنسى رامبو. على أن هناك رأياً آخر من قبل أحد المؤرخين المحدثين الأجلاء يذكر فيه أن انتصار المماليك على التتار فى معركة عين جالوت دفعت التتار أو المغول بغربى آسيا إلى اعتناق الدين الإسلامي وذلك بتحول بركه خان القبيلة الذهبية وقومه إلى الإسلام، وأعلن عداءه للإلخانات فى إيران. د. العريني: المماليك، ط. بيروت ١٩٦٧م، ص٤٩.

(٢) هكذا تسمية مصادر تاريخ المغول. رشيد الدين: جامع التواريخ، ص١٢٤.

(٣) شبولر: العالم الإسلامي، ص٥٠. معتمداً على مصادر ومراجع لم يذكرها وقيل أن سبب إسلام بركه خان يرجع إلى لقاءه مع قافلة تجارية أتت من بخارى فاختلى بتاجرين منهم وسألهما عن الإسلام، فشرحاه شرحاً مقنعاً، فاقتنع به بركه خان وأخلص له وأخفاه، وأول ما كاشفه فى ذلك أخوه الأصغر، ثم أعلن بعد ذلك إسلامه. راجع ما كتبه أستاذنا الدكتور جمال الدين سرور: الظاهر بيبرس، ص١١٠ ح(١).

(٤) د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص٣٣٣.

(٥) هكذا تسمية مصادر وتاريخ المغول. وتسمية المصادر الإسلامية الأخرى، هلاوون مثلاً ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٦٦،٨٨-٨٩،١٢٢،١٣٥-١٣٦.

(٦) يلاحظ أن كلمة إلخان ترجمت بطريقة غير صحيحة فى المراجع الأوربية التى تعرضت لتاريخ المغول باسم إلكخان. مثلاً شبولر: العالم الإسلامي، ص٩٤.

وأسباب الخلاف بين بركه خان وابن عمه هولاكو فكثيرة منها اعتناق بركه خان للإسلام منذ حداثته، وبقاء هولاكو على دين التتار، بالإضافة إلى استياء هولاكو من تدخل بركه خان وتحكمه فى شئون الملك، وكان هولاكو يكن فى قلبه حقداً شديداً لبركه خان، وأظهر ذلك العداء فجأة كما يذكر مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذانى عندما عبر عن ذلك فى إحدى المرات قائلاً " ولو أنه (أى بركه) كبير الأسرة وسيدها إلا أنه لا يرعى الحياء والخجل ويخاطبنى بتهديد وعنف وإنى لن أحابيه بعد هذا "[١]. وكان بركه خان يبادله نفس الشعور عندما صرح قائلاً عن هولاكو " إنه قد دمر جميع مدن المسلمين وقضى على أسر ملوك الإسلام جميعاً ولم يميز بين الصديق والعدو، وأعدم الخليفة (يقصد الخليفة العباسى المستعصم) دون مشورة كبار الأسرة، فلو أمدنى الله تعالى لطالبتهم بدماء الأبرياء "، وجرت بين الطرفين حروباً طاحنة عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١ - ١٢٦٢م[٢].

كما زادت حدة الخلاف بين بركه وهولاكو عندما رفض بركه قيام هولاكو بإرسال تلك الحملة ضد الخليفة العباسى المستعصم فى بغداد وقتله[٣]، وحاول أن يتوسط فى الأمر، ولكنه لم يستطع أن يمنع الفرقة التى أرسلها من جيشه من الاشتراك مع الفرق الأخرى التى أرسلت إلى بغداد ونهبها. يضاف إلى هذا قيام منكو (أو مونكو) (١٢٥١ - ١٢٥٨م / ٦٤٩ - ٦٥٦هـ) قاآن المغول الأعظم بجعل

---

[١] رشيد الدين: جامع التواريخ، ترجمة د. فؤاد الصياد وآخرين، المجلد الثانى الجزء الثانى، ط. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٠، ص٣٣٢.

[٢] رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢ج٢ ص٣٣٣-٣٣٤، مجلد١ ص١٢٤-١٢٥.

[٣] النويرى: نهاية الأرب، ج٢٧ (تحقيق د. سعيد عاشور) ط. دار الكتب المصرية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٣٨٠-٣٨٢.

بلاد القوقاز وما جاورها، وهى أصلاً تابعة لقبائل المغول الذهبية، من نصيب هولاكو[1].

يضاف إلى ما سبق ذكره مطالبة بركه خان (أو بركاى خان) بنصيبه مما فتحه هولاكو إيلخان مغول فارس من البلاد وأخذه من الأموال وذلك طبقاً لما جرت عليه عادة إيلخانات المغول، إلا أن هولاكو قتل رسل بركه، فاشتد غضب بركه فكاتب السلطان الظاهر بيبرس ليتفقا على هولاكو، ورد عليه بيبرس بسفارة ليعبر له عن موافقته على هذا التحالف ضد تهديد مغول فارس لبلاد الشام ومصر. وقد احتوت رواية ابن أبى الفضائل بتفاصيل عديدة عن هذه الأمور[2]. ويضيف صاحب النهج السديد أن من أسباب استمرار العداوة بين مغول فارس ومغول القبجاق تدخل بركه خان فى الصراع الأسرى بين المغول أنفسهم، وذلك بوقوفه بجانب أريقابوقا واعترافه به خاناً أعظم على جميع بلاد التتار، فى مواجهة أخيه الأكبر قوبيلاى الذى انتصر له هولاكو، مما أدى إلى غضب قوبيلاى وهولاكو. وعندما انتصر قوبيلاى على أخيه أريقابوقا وأصبح القاآن الأعظم (٦٥٩-٦٩٤هـ/١٢٦٠-١٢٩٤م)[3]، وجد بركه خان نفسه فى عزلة سياسية تامة، فقطع جميع علاقاته مع عاصمة القاآن أو الخان الأعظم فى بكين، ولكن هولاكو وطد علاقاته مع الخان الأعظم الذى أضفى عليه لقب إيلخان (أى نائب الملك أو

---

[1] رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢ ج١ ص٣٣٤-٣٣٥؛ النويرى: نهاية الأرب، ج٢٧ ص٣٩٢؛ أيضاً شبولر: العالم الإسلامي، ص٥٠-٥١. ويلاحظ أن تأسيس دولة هولاكو بفارس لم يعجب بركه خان ولاسيما بعد إدماج آران وأذربيجان داخل حدودها مع أنهما كانتا من إرث جوجى والد بركه خان حسب وصية جنكيز خان أول قاآنات المغول. راجع النويرى: نهاية الأرب، ج٢٧، ص٣٩٢.

[2] ابن أبى الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشيه، باريس ١٩١١-١٩٣٠، ص١١٦-١١٧. وضمن هذه الرواية الكثير من عادات وتقاليد المغول.

[3] ابن أبى الفضائل: النهج السديد، ص١١٨-١٢٠.

نائب القآن الأعظم)[1]. واستمرت العلاقات المتوترة بين القبائل الذهبية ومغول فارس، باستمرار الحرب الأهلية بين قوبيلاى وبوقا، وانتهز بركه خان هذه الفرصة فلم يكن ليقبل أن ينتزع منه معقله الجنوبي دون نضال، وهكذا بدأ فى عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م[2] بالهجوم على القوقاز، وأحرز انتصاراً كبيراً على مغول فارس على نهر ترك عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م. ورغم ذلك أخفق فى طرد هولاكو من القوقاز.[3]

وكان من نتائج هذا التنافس بين دولتى المغول حدوث تقارب بين المماليك فى مصر والشام ومغول القفجاق المسلمين وذلك للوقوف فى وجه العدو المشترك (مغول فارس)[4]، لدرجة أن السلطان بيبرس الأول لم يكد يعلم بإسلام بركه خان حتى كتب إليه "يغريه بقتال هلاون (هولاكو) ويرغبه فى ذلك"[5]. بل بادرت بعض

---

[1] شبولر: العالم الإسلامي، ص٥١. وتذكر إحدى الدراسات الحديثة التى تناولت العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى دولة المماليك الأولى أن هدف هولاكو من تأييده قوبيلاى هو تحقيق أطماعه الكبيرة فى الاستيلاء على العرش المغولى فى الصين. د. فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص٧٧. على أن هذا الباحث لم يشر إلى المصادر أو الأدلة التى اعتمد عليها فى بناء رأيه هذا.

[2] شبولر: العالم الإسلامي، ص٥١.

[3] للإستزادة عن ذلك راجع د. فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية، ص٧٦-٧٧.

[4] للإستزادة عن أسباب التقارب بين مغول القبيلة الذهبية ومماليك مصر، وعن الصراع بين مغول القبيلة الذهبية وبين أبناء عمومتهم من مغول فارس. راجع د. فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية، ص٢٠٥-٢١٨ (الخاتمة الخاصة بعلاقة المماليك بمغول القفجاق). معتمداً على مصادر ومراجع.

[5] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٨٨،١٣٩؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٨٨؛ المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق د. محمد مصطفى زياده، ط. القاهرة ١٩٣٤، ج١ ص٤٦٥.

المصادر إلى الإشارة - بالتلميح دون التصريح - إلى القول بإقامة تحالف رسمى بينهما عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١م، وأن الظاهر بيبرس الأول أمر بالدعاء لبركه خان بعد الدعاء للسلطان المملوكى على منابر مصر والشام والحرمين[١]. ويذكر أحد المستشرقين المحدثين أن حلف بركه خان مع السلطان المملوكى بيبرس الأول كان يمثل خرقاً للتقاليد المغولية القديمة لأنه لم يحدث فى تاريخ إيلخانات أو قاآنات المغول أن تقيم دولة مغولية حلفاً مع دولة غير مغولية[٢]. ولعل النتيجة الأكثر أهمية المترتبة على الصراع المغولى الأسرى هى فرار أو نزوح الكثير من المغول خاصة مغول القبجاق المسلمين بنسائهم وأولادهم إلى بلاد الإسلام مستأمنين[٣] وبصفة خاصة إلى مصر المملوكية، ورحب بهم الظاهر بيبرس وأكرم وفادتهم وكان بعض هؤلاء المغول خاضعين لهولاكو. وقد أطلق المؤرخون على هذه العناصر المغولية التى جاءت إلى مصر لاجئة أو منفية وأسماء أخرى مثل الوافدين أو الوافدية[٤] والمستأمنة أو المستأمنين[٥].

---

[١] مثلاً المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢١ س١٧-١٨.

[٢] شبولر: العالم الإسلامى، ص٥٣. ويلاحظ أنه حتى الدول المتحالفة رسمياً مع مغول فارس مثل دويلات جورجيا أو أرمينيا أو أمراء روسيا وحتى إمبراطور بيزنطة وطرابزون كانوا يعاملوا معاملة الأتباع الإقطاعيين من وجهة النظر المغولية. شبولر: المرجع السابق، ص٥٣.

[٣] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٧٨.

[٤] مثلاً: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٥،١٧٨.

[٥] مثلاً: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر. ص١٧٨؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٠١. وسوف نتعرض بالتفصيل للإجراءات التى اتخذها بيبرس تجاه هذه الهجرات الجماعية للمغول عامة ومغول القبيلة الذهبية خاصة. هذا وقد أورد كل من المؤرخ المجهول، وأبو المحاسن أسماء بعض القادة المغول الذين هاجروا بأسرهم إلى مصر فى سلطنة الظاهر بيبرس مثل القائد قُنُقُر التترى. مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك، ص١٢٩. ويسميه أبو المحاسن القائد قُلُقْغ التتارى. أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٤٢. ويلاحظ أن أبا المحاسن قد نقل نفس رواية قادة المغول الذين هاجروا إلى مصر فى عصر بيبرس الأول من تاريخ=

أما بالنسبة للدوافع أو الظروف الاقتصادية التي دفعت تلك العناصر المغولية للنزوح إلى مصر - بالإضافة إلى العوامل السياسية والعسكرية السابقة الذكر، وهي الدوافع التي لا يمكن أن تقارن بالعوامل الطبيعية أو السياسية بل توضع في المقدمة من حيث التأثير بلا منازع، ويقصد بها الطبيعة الجغرافية للأراضي التي أتى منها هؤلاء المغول وبصفة خاصة المنطقة الممتدة من سواحل البحر الأسود إلى منطقة حوض نهر الفولجا (أي جنوب روسيا) ومدى صلاحيتها للزراعة أو الرعي أو مدى توافر مصادر الحياة والنقد بها من زراعة وصناعة وتجارة. فعلى الرغم من الرواية التي ذكرها المستشرق الألماني برتولد شبولر B.Spuler عن أن منطقة السهوب التي عاش فيها مغول القبجاق من أراضي الفولجا العليا والوسطى ومنطقة شمال شرق البحر الأسود خصبة أو غنية بحيث وجدت المراعي المناسبة لتربية خيول مغول القبائل الذهبية القبجاق والمناطق الواسعة الرحبة لمربي قطعان المواشي من المغول، وهو بذلك يشير إلى مدى الأهمية الاقتصادية الطبيعية لأراضي هذه العناصر[1] التي نزحت إلى مصر فيما بعد، إلا أن الرواية الإسلامية لدينا تدحض الرأي الذي ذهب إليه شبولر، والتي تشير إلى مدى الفقر الشديد الذي تميزت به بيئة هذه المناطق من جنوب روسيا وافتقارهم الشديد إلى مصادر النقد من زراعة وصناعة وتجارة (اللهم إلا تجارة العبيد أو الرقيق التي اشتهروا بها حيث كانت شواطئ البحر الأسود مصدراً رئيسياً لتصدير أعداد لا تحصى من هؤلاء الرقيق، فكانت تصدر إلى مصر سنوياً آلاف من هؤلاء الرقيق الذين تسنموا السلطة في مصر فيما بعد باسم المماليك). ويرجع ذلك بشكل رئيسي إلى قسوة المناخ وشدة

=سلاطين المماليك دون أن يشير إلى ذلك بشكل صريح. ويسميه بيبرس الدوادار: بسيف الدين قنغر التترى. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٨٠ وراجع حاشية رقم (٣) في نفس الصفحة.

(١) برتولد شبولر: العالم الإسلامي، ص٣٩.

البرودة فى هذه المناطق، وعبرت الرواية الإسلامية عن ذلك قائلة " وهم (أى مغول هذه المناطق) فى جهد من قشف العيش لأنهم ليسوا أهل حاضرة، وشدة البرد تهلك مواشيهم ... وهم لشدة ما بهم من سوء العيش إذا وجد أحدهم لحما سلقه ولم ينضجه وشرب مرقه، وترك اللحم ليأكله مرة أخرى، ثم يجمع العظام ويعاد سلقها مرة أخرى وشرب مرقها، وقس على هذا بقية عيشهم[1]". وتضيف الرواية الإسلامية " ولا يعرفون فى المآكل ما يُعاف مما لا يعاف، ولا التحريم من التحليل[2]". ويبدو أنهم كانوا يتعرضون لمجاعات عديدة لدرجة أنهم فى كثير من الأحيان كانوا يضطرون " إلى بيع أولادهم فى بعض السنين لضيق العيش[3] ".

ولا شك أن مثل هذه الأحوال الاقتصادية المتردية أدت إلى إجبار أعداد كبيرة من المغول على النزوح من أرضهم إلى العديد من البلاد الإسلامية وعلى رأسها مصر، بعد أن غدا أمر بقائهم شبه مستحيل بعد ما سمعوا عن رخاء مصر الاقتصادى ومدى ما يتمتع به المماليك من ثراء ونفوذ بجانب الاستقرار السياسى الداخلى الذى كان تتمتع به مصر فى عصر سلاطين المماليك الأوائل، وكانت هذه العوامل بالنسبة لمصر المملوكية عوامل جذب وتشجيع لهؤلاء المغول على الهجرة إليها فى شكل جماعات أو أفراد وليجدوا فيها المأوى والبديل لأوطانهم بجنوب روسيا.

أما بالنسبة للعوامل الخاصة بمماليك مصر التى تمثل عوامل جذب واستماله لهذه العناصر المغولية التى شجعها على الهجرة إلى مصر واتخاذها ملجأ أمينا يعولون على ارتياده والإقامة به كبديل لديارهم فهى

---

(1) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٨. معتمداً على رواية العمرى صاحب مسالك الأبصار.

(2) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٩

(3) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٨

عوامل عسكرية واقتصادية وسياسية ونفسية واجتماعية، وكلها عوامل متشابكة متداخلة ومتشابهة لا تنفصل كل منها عن الآخر، كما أشارت بذلك غالبية المصادر المملوكية بالتلميح دون التصريح.

إن سلاطين المماليك وعلى رأسهم بيبرس الأول البُنْدُقدارى[1] بوصفهم عنصر دخيل على رعاياهم في مصر والشام حرصوا أشد الحرص على الروابط التى كانت تربطهم بأصولهم العرقية من ناحية[2]، وبعضهم البعض من ناحية أخرى، ووجدوا فى هذه الروابط ما كانوا يأملونه من أمان وراحة نفسية، وهذا له علاقة كبيرة بالعوامل النفسية، وبذلك قامت دولة المماليك الأولى على أساس دعامة من عنصر المغول القبجاق أو العناصر التى عاشت فى أرض القبجاق ومن هذا العنصر نفسه كان السلاطين المؤسسون لتلك الدولة، فقد كانوا من سكان سهوب أواسط آسيا، فالسلطان عز الدين أيبك كان تركى قبجاقى الأصل والجنس وعرف بين البحرية

---

(1) البندقدارى: نسبة إلى البُنْدُقدار وهو لفظ فارسي مركب معناه حامل جراوة أو كيس البندق خلف السلطان أو الأمير. القلقشندى: صبح الأعشى، ج5 ص458،459. وقد سمى بيبرس هذا باسم البندقدارى لأنه كان فى أول أمره مملوكاً للأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى، ثم انتقل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وصار من مماليكه البحرية. والأمر العجيب أن الأمير علاء الدين هذا قد عاش حتى صار من جملة أمراء الظاهر بيبرس هذا. راجع أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج7 ص94-95.

(2) يلاحظ أن هؤلاء المماليك عاشوا فى مصر يكونون عنصراً منفصلاً عن بقية سكان البلاد ولم يحاولوا إلا نادراً أن يتقربوا أو يختلطوا بهم أو ينخرطوا فى صفوفهم، كما قصروا وظيفة الحرب على من يشترى منهم. وبذلك أصبح هؤلاء المماليك بمثابة طبقة أرستقراطية عسكرية حاكمة، لا يملكون الأرض ولا يشتغلون فى الحرف ومهما انقسموا إلى شيع وأحزاب فإنهم كانوا يشعرون جميعاً بأن رابطة الأرستقراطية الحاكمة تربطهم ببعض وتجعلهم كلاً قائماً بذاته منفصلاً عما عداه وقليلاً ما عرف هؤلاء المماليك الحياة العائلية الصحيحة. راجع مقدمة د. مراد كامل لكتاب تشريف الأيام لابن عبد الظاهر، ص36-37.

بالتركمانى[1]، وسيف الدين قطز كان من مغول القبجاق[2] برغم دعواه بأنه ابن أخت خوارزم شاه[3]. وبيبرس نفسه مولده بأرض القبجاق (ولد عام ٦٢٥هـ/١٢٢٧م تقريباً) وحمل إلى القاهرة وبيع هناك من سوق الرقيق بسيواس[4]، والمنصور قلاوون كان من جنس القبجاق كذلك[5]. ومن الطبيعى أن يعتمد سلاطين المماليك المؤسسون لدولتهم على بنى جنسهم من القبجاق، ولما كان هؤلاء المماليك يكونون عنصراً دخيلاً مختلفاً منفصلاً عن بقية سكان البلاد التى حكموها ولم يحاولوا إلا فى النادر أن يتقربوا إلى الأهالى أو يختلطوا بهم أو ينخرطوا فى صفوفهم وكونوا طبقة

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص٣ وما بعدها.

(٢) أبو المحاسن: المصدر السابق، ج٧ ص٧٢.

(٣) أبو المحاسن: المصدر السابق، ج٧ ص٨٥. ويذكر العينى أن أصله من الترك أو المغول غير معروف حتى قال بعضهم إنه من أولاد الناس (أى اللقطاء) واسمه محمود بن مودود بن خوارزم شاه. العينى: السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم شلتوت، ط. القاهرة ١٩٦٧، ص٤٧.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص٩٥-٩٦. ويذكر العينى أن بيبرس أصله من قفجاق، وقيل من برج أغلى، وقيل إنه من الأرمن. ويتعجب العينى من اختلاف الآراء حول أصل بيبرس. العينى: السيف المهند، ص٤٧

(٥) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار، تحقيق جلال حرب، ط. بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٦١ (الجزء الخاص بوجهاء القاهرة)؛ المقريزى: السلوك، ج١ ص٦٦٣. وينتسب المنصور قلاوون إلى قبيلة تركية الأصل تسمى برجوغلو كانت تعيش فى إقليم كيشاك. وعرف بالصالحى لأنه كان من مماليك الصالح نجم الدين أيوب كسميه الظاهر بيبرس. راجع مقدمة تشريف الأيام، ص٤٣. وعرف بالألفى لأنه اشترى من قبل الأمير علاء الدين آقسنقر الكاملى بألف دينار. راجع بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٥٥-١٥٦؛ ابن بطوطة: رحلته، ص٦١. ويذكر ابن بطوطة أن الذى اشتراه الصالح أيوب بألف دينار ذهب. ويذكر صاحب السيف المهند أن قلاوون أصله من خالصة القبجاق، وقيل من تركمان قَزّغلى. العينى: السيف المهند، ص٤٧.

أرستقراطية حاكمة، فكان طبيعياً أن ينظروا نظرة ريبة أو شك إلى غيرهم من العناصر الأخرى في الاعتماد عليهم في تسيير سياسة الدولة أو في بناء الجيش المملوكي الجديد.

ويضاف إلى ذلك معرفة سلاطين المماليك قدر هذه العناصر من مغول أو ترك القبجاق من الناحية العسكرية وتمرسهم أو براعتهم بأساليب القتال والفروسية، وعبرت عن ذلك إحدى المصادر المملوكية عن مدى براعة ومقدرة هذه العناصر قائلة " فهم من خيار الترك أجناساً لوفائهم وشجاعتهم وتجنبهم الغدر، مع تمام قاماتهم وحسن صورهم وظرافة شمائلهم[1]". ولم ينس هؤلاء المماليك الدور الكبير الذي قامت به الفرق التي أرسلها بركه خان القبائل الذهبية قبيل معركة عين جالوت – أثناء صراعه مع بني عمومته من إيلخانات مغول فارس – مما سهل انتصار المماليك في تلك المعركة والتي لعبوا هم فيها دوراً كبيراً في إحراز هذا النصر (ومنهم قطز وبيبرس وقلاوون وغيرهم)، والتي كانت نقطة تحول فاصلة بالنسبة لنظام المماليك، فتسنموا السلطة وتوطدت سلطتهم ونفوذهم من تلك المعركة ولتصبح دولة المماليك قوة تضاهي قوة المغول وحصناً واقياً للإسلام في الوقت الذي كانوا يدركون فيه أن الخطر المغولي والخطر الصليبي ما زالا قائمين ويهددان مصر والشام، وعبر عن ذلك المقريزي في نص فريد له قائلاً " وملوك مصر (يقصد سلاطين المماليك) وأمراؤها وعساكرها قد ملئت قلوبهم رعباً من جنكيز خان وبنيه، وامتزج بلحمهم ودمائهم (أي هؤلاء المماليك) مهابتهم وتعظيمهم[2]". واستلزم الجهاد ضد هذين الخطرين أعداد جيش قوي يتكون من عناصر متمرسة في الحرب والقتال ضد المغول وتعرف أساليب وطرق المغول في فن الحرب والقتال تطبيقاً للمقولة الشهيرة (لا يفل الحديد إلا الحديد)، وكان من الطبيعي أيضاً

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٨.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٢١ سطور ١٨-١٩.

أن يعتمدوا في إعداد ذلك الجيش على عناصر من نفس جنس المماليك البحرية أي من القفجاق وعلى سواعد وأكتاف هذه العناصر بنى الجيش المملوكي وبرزت القوة العسكرية لسلطنة المماليك طيلة العصر المملوكي في مصر وبلاد الشام.

أما العوامل الاقتصادية الخاصة بمصر والتي كانت تمثل عامل جذب كبير لدى هؤلاء المغول وغيرهم من عناصر الأتراك خاصة القبجاق، فلا شك أن غنى مصر وما تمتع به المماليك من ثروة ونفوذ بالإضافة إلى حالة الرخاء الاقتصادي التي اشتهرت بها مصر في بداية وخلال عصر دولة المماليك الأولى[1] باعثاً على الهجرة أو نزوح الكثير من الأسرات المغولية إليها، وكانت في نفس الوقت دافعاً رئيسياً لكثير من أهل التركستان على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا في حاشية سلطان مصر، وعبر عن ذلك القلقشندي في ذلك النص الفريد عندما قال أن مغول القبجاق كانوا "يبيعون أولادهم في بعض السنين لضيق العيش"[2]. وكثر تجار المماليك وأخذوا يترددون على منطقة التركستان بصفة خاصة بغية شرائهم ثم بيعهم في مصر، وامتدت تجارة هؤلاء المماليك إلى أوربا وكان يمارسها التجار الغربيون وجنوا من ورائها أرباحاً طائلة[3]، مما أدى

---

(١) للإستزادة عن أحوال مصر الاقتصادية في العصر المملوكي راجع ما كتبه د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص٢٦٥-٢٦٩ (الفصل السابع) معتمداً على مصادر ومراجع.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى،ج٤ ص٤٥٨.

(٣) للإستزادة راجع هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا، مراجعة د. عز الدين فودة، ط. الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩١م، ج٢ ص٣٠٧-٣٠٨. ويبدو أن شواطئ البحر الأسود التي أصبحت في قبضة دولة مغول القبائل الذهبية صارت مصدراً رئيسياً لهؤلاء العبيد، الذين كانوا يصدرون أو ينزحون سوياً إلى مصر، وهم الرقيق الذين ارتفع مقامهم إلى القمة وأصبحوا سادة البلاد في مصر تحت اسم المماليك. شبولر: العالم الإسلامي، ص٥٢. ويلاحظ أن منطقة القرم هذه كانت موطناً لعديد من الأجناس بالإضافة إلى مغول القبجاق، مثل الروس والعلان. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢١٥.

إلى نفاذ صبر طقطا (أو توقتو) خان القبجاق (٦٩١-٧١٢هـ/١٢٩١-١٣١٢م) بهذه التجارة فأرسل جيشاً إلى مدينة كَفَا[1] بالقرم وضرب أوكار تجار الرقيق بها، غير أن ذلك لم يمنع من تجارة الرقيق أو يقلل من نشاطها[2].

أما بالنسبة للعوامل الاجتماعية والنفسية والدينية أيضاً التى تمثل قاسم مشترك بين مماليك مصر ومغول القبجاق فالمؤكد فيه أن التركيبة الاجتماعية لكل من دولتى المماليك البحرية ودولة مغول القبجاق الذهبية كانتا متشابهتين إلى حد كبير، فكلاهما من سكان سهوب أواسط آسيا، وكلاهما على النيل وعلى الفولجا. كما تتكون الطبقة الحاكمة فى كل منهما من أفراد يتمتعون بالخصائص التركية، ويحكمون شعباً ذا طبيعة مختلفة تماماً[3]. ويؤكد وجهه النظر تلك ما ذكره القلقشندى فى ذلك النص الفريد فى بيان جزل قائلاً "فمالت الجنسية إلى الجنسية، ووقعت الرغبة في الاستكثار منهم (أى من مغول القبجاق) حتى أصبحت مصر بهم آهلة المعالم"[4].

---

[1] مدينة أو ثغر كَفَا : وهى فرضه القرم وهى على ساحل بحر القرم ويقابلها من البر الآخر مدينة طرابزون على ساحل بحر الروم وعليها سور من لبن ومن شماليها وشرقيها تقع صحراء القبجاق. القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥ ص٤٦١؛ أيضاً راجع حاشية رقم (١) فى كتاب بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٣١٣.

[2] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٣١٣؛ وراجع ما كتبه د. العرينى: المماليك، ص٥٦-٥٧. معتمداً على مصادر. ويذكر المستشرق الألمانى شبولر أن هذه التجارة كانت تسير بشكل طبيعى مادام الخان (أى خان القبائل الذهبية) فى ساراى، وإمبراطور بيزنطة ميخائيل الثامن باليولوجس لا يبديان أية معارضة. شبولر: العالم الإسلامي، ص٥٢.

[3] سبق أن ذكرنا أن المماليك عاشوا فى مصر كعنصر مستقل أو منفصل عن بقية سكان البلاد مكونين طبقة أرستقراطية حاكمة لا تملك الأرض ولا يعملون فى الحرف والصناعات.

[4] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٨.

وفى كلتا الدولتين أيضاً كان الدين الإسلامي الدين الرسمى لهما، وكان للعامل الدينى أثره فى اجتذاب هؤلاء المغول إلى مصر، خاصة وأن العامل الدينى كان له أثره أو وزنه الكبير فى العلاقات بين شعوب الشرق الأدنى الإسلامي. وهكذا استقبلت الدولتان نبأ التحالف الذى عقد بينهما عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م لمواجهة مغول فارس -العدو المشترك- بكثير من الارتياح[1]. وكما هى العادة فى كثير من الحوادث التاريخية يحدث أن تقطع أواصر الرحم أو روابط الدماء بين الاخوة الذين تحولوا إلى الاخوة الأعداء (أى المغول)[2].

ثانياً: هجرات المغول إلى مصر وتوطينهم هناك منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس الأول (منذ عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) :

كان من الطبيعى أن يعتمد كل سلاطين المماليك البحرية على مثل ما نشئوا فيه من جيوش مملوكية معظمها من بنى جنسهم من مغول القبجاق أو غيرهم من العناصر الأخرى، وقد أدت العلاقات السياسية الطيبة والقوية بين الظاهر بيبرس الأول البندقدارى (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) وبين بركه خان مغول القبجاق من ناحية والتى توجت بوجود نوع من التعاون السياسى الذى دعمه الحلف الذى عقد عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م، ثم بين بيبرس والإمبراطور البيزنطى

---

(1) كان لهذا التحالف بين القبائل المغولية الذهبية ومصر اعتبارات سياسية وعسكرية بالإضافة إلى عامل التجارة وهو أهم هذه العوامل.

(2) ويذكر أحد المؤرخين المحدثين الكبار أن العلاقات بين الظاهر بيبرس وبركه خان ملك مغول القبجاق لم تكن مجرد علاقات شخصية بين رجلين وإنما كانت علاقة بين دولتين ربطت بينهما روابط روحية قوية وإحساساً بخطر واحد مشترك هو خطر مغول فارس. د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص٣٣٥.

ميخائيل باليولوجس[1] إلى تسهيل مهمة شراء المماليك القبجاق، وذلك بعد إبرام تلك المعاهدة التجارية بين خان القبيلة الذهبية والسلطنة المملوكية والتي وافق عليها البيزنطيون[2]. كما نجح بيبرس عن طريق سفاراته وهداياه في أن يحصل من الإمبراطور البيزنطي على براءة منه بمرور بعض السفن المملوكية تحمل مماليك قبجاق عبر البوسفور إلى البحر الأسود في كل عام[3]. وتؤكد مصادر العصر المملوكي على أن السلطان بيبرس الأول لم يكتف بما كان يجلب إليه من المماليك من بلاد القبجاق، وما يقع من سبي أثناء الحروب مع التتار وسلاجقة الروم[4]، بل كان يبعث التجار ليشتروا له المماليك بل وأعطاهم مرسوماً بإعفائهم

---

(1) تبدو مهارة السلطان بيبرس السياسية في أنه حرص أثناء حروبه مع الصليبيين والمغول على محالفة بعض القوى الخارجية المعادية لكل من الصليبيين والمغول، فحالف الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس وعقد معه حلفاً دفاعياً عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م لعلمه أن الإمبراطورية البيزنطية كانت دائماً العدو اللدود للصليبيين في بلاد الشام، خاصة بعد أن قام البيزنطيون بطرد اللاتين من القسطنطينية بعد أن كانوا قد احتلوها وأقاموا بها مملكة لاتينية استمرت نصف قرن. وكان ميخائيل باليولوجس على استعداد للانضمام إلى أي عدو ضد اللاتين. للاستزادة من هذا التحالف راجع بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٨٨،٩٣؛ أيضاً د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص١٨٠؛ د. زبيدة عطا في شروحاتها لزبدة الفكرة، ص٨٨ حاشية (١).

(2) شبولر: العالم الإسلامي، ص٥٣.

(3) د. أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص٢١٧؛ هايد: تاريخ التجارة، ج٢ ص٢٤٣؛ كذلك

Howorth, History of the Mongols, London 1975-1976, Vol. II, p.132

ويلاحظ أن منطقة القرم كانت من أهم مصادر تجارة الرقيق بالنسبة لمماليك مصر. ويلاحظ أن سلاطين المماليك بعد بيبرس استمروا على علاقة الود مع أباطرة بيزنطة وحصولهم على حق إرسال سفنهم لشراء الرقيق من القبجاق والجراكسه. مثلاً راجع بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٩٢؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٧ ص٢٣١-٢٣٣.

(4) المقريزي: السلوك، ج٢ ص٨٩.

من الرسوم المفروضة على بضائعهم والتى كانت تشمل هؤلاء المماليك المجلوبين من مملكة بركه خان ومنكوتمر خانات قبائل الأوردو الذهبية[1] وبلاد فارس وكرمان[2]. وقد سار السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الألفى (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) - والذي كان هو نفسه من جنس القبجاق من قبيلة برج أغلى التركية[3]- على نهجه فى استجلاب المماليك من الترك والتتار، وكان معظمهم من الآص والجراكسه الذين جعلهم فى أبراج القلعة وسماهم البرجية[4]. ويلاحظ أنه كان لاستمرار الحرب بين خانات المغول فى الشرق أثر كبير فى كثرة السبى من النساء والصبيان المغول، الذين جلبوا إلى أسواق النخاسة فى مصر والشام، ولاسيما فى عصر السلطان محمد بن قلاوون[5]. على أن الحروب الناشبة بين قاآنات أو إيلخانات المغول لم يترتب عليها ازدياد وهجرة الرقيق إلى مصر فحسب، بل ترتب عليها أيضاً هجرة أقوام وطوائف من الأجناس التى غدت خاضعة للتتار، ومنها طوائف من التتار أو المغول. وهؤلاء التحقوا كذلك بالجيش المملوكى وفى مراتب أعلى مما كانت فيه الطوائف الأخرى من العرب والكرد والتركمان،

---

(1) الأوردو: سبق التعريف بها ص٦.

(2) أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٢. وهذا النص الذى أورده أبو المحاسن يؤكد أن المماليك المجلوبين إلى مصر لم يقتصروا على عنصر المغول أو الترك من القبجاق بل أيضاً شمل عناصر أخرى من مغول فارس.

(3) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٥٥. ويذكر المقريزى قبيلة المنصور قلاوون باسم مرج أغلى، المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٣٨ س٢٤. ويذكر العينى أن أصله من خالصة القبجاق، قيل من قبيلة تركمان قزّغلى. العينى: السيف المهند، ص٤٧.

(4) أبو المحاسن: النجوم ، ج٧ ص٣٣٠. وقد سار على نفس النهج فيما بعد الناصر محمد بن قلاوون. للإستزادة راجع المقريزى: الخطط، ج٢ ص٤٣.

(5) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٣٠٢-٣٠٣، ٣٠٥-٣١٣، ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر ، ص٢٨٠-٢٨١.

وإن كانت تقل عن مكانه المماليك السلطانية الذين اشتروا بالمال وقضوا مدة الرق في التعليم الديني والعسكري ثم اعتقوا وأصبحوا جنوداً مؤهلين[1]. وقد أطلق المؤرخون على من قدم من هذه العناصر أو الطوائف المغولية إلى مصر في خلال العصر المملوكي الأول اسم الوافدية أو المستأمنين أو المستأمنة[2]. ويلاحظ أن أكبر الهجرات المغولية إلى مصر قد حدثت في أثناء حكم اثنين من السلاطين : بيبرس الأول البندقداري المؤسس الحقيقي لدولة المماليك البحرية، والثاني هو زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م) وهو مغولي أويراتي[3] الأصل والذي رحب ببني جلدته وبالغ في إكرامهم على النحو الذي سنوضحه في حينه.

أما تفصيل قدوم الوافدية من مغول القبجاق إلى مصر فبدايته في أوائل عهد السلطان بيبرس الأول، وجاءت هذه البداية من الهاربين من وجه هولاكو إيلخان مغول فارس، ووصلت المجموعة الأولى في عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م وكان عددها يزيد على مائتي فارس بخلاف نساءهم وأطفالهم[4]. وأغلبهم مغول قبجاق واردين أصلاً من عند بركه خان، وكانوا يكونون جزءاً من حملة أرسلها بركه خان قبيلة الأوردو الذهبية إلى هولاكو قبل وقوع العداء بينهما، وأرسل بركه إلى قواته تلك يأمرها بالعودة إلى بلادها فإن تعذر عليها

---

[1] د. العريني: المماليك، ص٥٧. معتمداً على مراجع أوربية.

[2] سبق الإشارة لمثل هذه المسميات في بداية البحث.

[3] سوف نشير لأصل هذه الكلمة عند التعرض لهجرات هؤلاء المغول في عهد السلطان كتبغا.

[4] هكذا ذكرت بعض المصادر أعداد هؤلاء المغول الوافدين. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٧؛ المقريزي: الخطط، ج٢ ص١٣٧. ويذكر صاحب زبدة الفكرة أن عدد هؤلاء المستأمنين حوالي ألف نفس وأورد أسماء بعض قادتهم مثل كرمون وأمطغون ونوكيه وغيرهم. وربما أن هذا العدد من قبل بيبرس الدوادار يشمل الفرسان والنساء والأطفال معاً. راجع بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٠١.

ذلك فعليهم بدخول بلاد الإسلام فى طاعة السلطان الظاهر بيبرس، فلما وردت الأخبار بذلك إلى مصر "كتب السلطان بيبرس إلى نواب الشام بإكرامهم وتجهيز الإقامات لهم وبعث إليهم بالخلع والإنعامات وأحسن إلى مقدميهم الأربعة"[1]، وخرج بيبرس واستقبلهم بنفسه وأمر بإنزالهم فى آدر ومساكن بنيت خصيصاً لهم فى منطقة اللوق[2] بظاهر القاهرة، وأعطى أكابرهم آمريات (أى رتبة أميرمائه) فى فرقته البحرية السلطانية، وصار كل قائد منهم كأمير مستقل له الأجناد والغلمان، ثم أفرد لكل منهم جهة إقطاعية يعيش منها، وتظاهر أولئك الوافدية بالدين الإسلامي وأسبغت عليهم النعم ظاهرة وباطنة[3]. وقد اجتذبت أخبار هذا الإحسان والاستقبال

---

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت الطبعة السادسة (١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ج١٣ ص٢٣٤؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٧. ويلاحظ أن بيبرس الدوادار يشير إلى أن قادة هؤلاء المغول بأسرهم كانوا أكثر مما ذكرته المصادر المملوكية الأخرى. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٠١.

(2) اللوق: كانت تعرف قديماً باسم باب اللوق أو أراضى باب اللوق. ويقال لاق الشئ يلوقه لوقاً. ولوقة لينة. وأطلقت على الأراضى التى انحسر عنها النيل وكانت أرضاً لينة. وإلى زمن أو عصر المقريزى فى أراضى مصر إذا نزل عنها ماء النيل لا يحتاج إلى الحرث للينها بل تلاق لوقاً. وأراضى اللوق هذه كانت بساتين ومزروعات ولم يكن بها فى القديم بناء البتة. ثم لما انحسر الماء من منشأة الفاضل عمر فيها الأدر والمساكن فى العصر المملوكى. وكان يطلق اسم اللوق فى عصر المقريزى على المكان الذي يعرف بباب اللوق المجاور لجامع الطباخ المطل على بركة الشقاف وما يسار منه إلى الخليج الذى يعرف اليوم بخليج فم الخور. المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٧.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٧-١٣٨؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٠١؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٧-١١٨. ويلاحظ أن بيبرس الدوادار ذكر وصول هذه الجماعات الأولى من المغول المستأمنين ضمن حوادث عام ٦٦١هـ مخالفاً بذلك روايات المصادر المملوكية الأخرى. وربما اختلط عليه الأمر فخلط بين هذه الجماعة الأولى والجماعات الأخرى التى وفدت إلى مصر فيما بعد عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م.

الطيب جماعات أخرى من مغول القبجاق وغيرهم إلى مصر[1]، وهو (أى بيبرس) يقابلهم بمزيد الإحسان، فتكاثروا بديار مصر وتزايدت العمائر باللوق وما حوله[2]. وفى سنة ٦٦١هـ/١٢٦١م وفدت مجموعة أخرى من المغول القبجاق والبهادريه[3] (مغول فارس) تزيد على ألف وثلاثمائة فارس[4]، فكتب السلطان بيبرس بالإحسان إليهم، وركب السلطان بيبرس واستقبلهم بنفسه، وعمرت لهم مساكن باللوق فانزلوا بها[5] بأهاليهم وأولادهم[6]. ثم قدمت طائفتان أخريات من التتار والأتراك والبغاددة فى السنة التالية (عام ٦٦٢هـ/١٢٦٣م)[7]. وتشير الرواية المملوكية إلى مدى مخاوف بيبرس من كثرة هجرات المغول إلى مصر وعبر عن ذلك فى اجتماع له بأمرائه، بل أنه أمر الجيش المملوكى بأن يكون على أهبة الاستعداد تحسباً لأية أعمال تأتى من جانب بعض هذه الجماعات المغولية التى كان ينظر إليها بريبة[8]. وربما اعتقد بيبرس، نتيجة لازدياد تدفق الوافدين من المغول بهذه الأعداد، إنها

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٨؛ المقريزى: الخطط؛ ج٢ ص١١٨.

[2] المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٨.

[3] البهادرية: مفردها بهادر وهى كلمة مغولية معناها مبارز شجاع. وكانت تكون جزءاً من فرقة الحرس الخاص بجنكيز خان. وهذا الفريق (البهادريه) يقوم على خدمة الخان مباشرة، ولا يخرج إلى الحرب إلا إذا كان الخان نفسه مع جيشه فى ميدان القتال. وأحياناً كان يسند إليهم النظر فى أدق التفاصيل الخاصة بمعسكر الخان. وكانوا يكونوا طبقة أرستقراطية ممتازه فى الإمبراطورية المغولية. د. الصياد: المغول، ص٢٥٧.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٧٧؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٨.

[5] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٧٩.

[6] المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٨.

[7] المقريزى: السلوك، ج١ ق٢ ص٥١١،٥١٥. وقد أشار إلى وصول هذه العناصر المغولية إلى مصر صاحب الروض الزاهر بالتلميح دون التصريح عام ٦٦٢هـ وإن لم يشر فى هذه المرة إلى أعداد هؤلاء التتار. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٩٤-١٩٥.

[8] المقريزى: السلوك، ج١ ق٢ ص٥١٥-٥١٦.

سياسة مرسومة من قبل العدو (مغول فارس الوثنيين) ولابد من أن يأخذ حذره. وقد أنزل بيبرس هذه الجماعات فى منطقة اللوق التى أصبحت عامرة بمساكنها وسكانها الجدد من المغول القبجاق والبهادرية. وعلى الرغم من أن المصادر المملوكية لم تشر إلى وجود هجرات أخرى إلى مصر من مغول القبجاق وغيرهم فى عصر الظاهر بيبرس الأول إلا أننا نرجح أن هناك أعداداً أخرى من المغول المستأمنين قد وفدت إلى مصر طيلة فترة حكمه لمصر، وتؤكد المصادر المملوكية على ازدياد أعداد هؤلاء المغول فى مصر، "فتكاثروا بديار مصر وتزايدت العمائر فى اللوق وما حوله[1]" التى كانت تمثل بمثابة مستعمرة أو مستوطنة لهم-إذا ما صح هذا التعبير- فى مصر. ويضيف المقريزى مؤكداً ما ذكرناه بقوله أيضاً " ثم كثرت الوافدية فى أيام الملك الظاهر بيبرس وملئوا مصر والشام "[2]، " كما غصت أرض مصر والشام بطوائف المغل[3] ". ويؤكد تزايد أعداد هذه العناصر فى عصر بيبرس بصفة خاصة أنه عندما ضاقت بهم مساكن وحارات منطقة اللوق بظاهر القاهرة، اضطر معها لإنزال أعداد منهم داخل القلعة فى مساكن أعدها لهم بها كما أشار بذلك المقريزى[4]، والتى عرفت فيما بعد باسم " خرائب التتار أو التتر "، والتى خربت على أيدى السلطان المملوكى الأشراف برسباى (٨٢٦-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٧م) عام ٨٢٨هـ/١٤٢٤م فى عصر دولة المماليك الثانية، وذلك بعد أن هجرت من قبل

---

(١) المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٨.

(٢) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢١.

(٣) المقريزى: المصدر السابق، ج٢ ص٢٢١.

(٤) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٠٥،٥١٣.

سكانها أواخر عصر دولة المماليك البحرية وجزء من عصر دولة المماليك الجراكسة[1].

وثمة عدة ملاحظات جديرة بالاهتمام وذلك فيما يتعلق بعمليات توطين هذه العناصر من مماليك القبجاق وغيرهم فى مصر من قبل السلطان الظاهر بيبرس الأول بصفة خاصة أولها يتمثل فى مدى حرص السلطان بيبرس على تخصيص أحد أحياء مدينة القاهرة الذى عمره بالآدر والمساكن لنزول هذه العناصر المغولية من بنى جنسه بحيث تقتصر عليهم فقط. وحتى من قام بإسكان بعضاً منها داخل القلعة فإنه أنزلهم فى مكان خاص بهم (عرف باسم خرائب التتر كما ذكرنا آنفاً) وذلك فى شكل مستوطنات، بحيث لا يسمح لهم بالاختلاط بطبقات الشعب المصرى الأخرى، بحيث كونت هذه العناصر بما يمكن أن يسمى فى المجتمع المصرى المملوكى بجيتو Ghitto (أى أقليات) أو جاليات لها أوضاعها الخاصة والذين، كما تؤكد غالبية مصادر هذا العصر، حرصوا على الروابط التى تربطهم بأصولهم،

(1) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٠٥. ويلاحظ استمرار وجود هذه الدور التى نزل بها المغول حتى زمن المقريزى والتى ظلت تحمل أسماء الأمراء أو القادة التى نزلوا بها، كما لوحظ وجود بعض الدور التى نزل بها هؤلاء المغول فى جهات متفرقة أخرى بالقاهرة خاصة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون مثل دار الأمير حسين الططرى السلاح دار الناصرى. راجع المقريزى: الخطط، ج٢ ص٤٤. بالإضافة إلى المنشآت الدينية والمدنية التى أنشأها بعض الأمراء المغول مثل قوصون المغولى القبجاقى الأصل. راجع ابن حبيب: تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، ج٣ (تحقيق د. محمد أمين) القاهرة ١٩٨٦، ص٣٣-٣٤؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٨٥،٩٣،١١٥. وهناك أيضاً دار زين الدين كتبغا المغولى الأويراتى الأصل الذى كان يسكنها قبل أن يتولى السلطنة فيما بعد وتعرف برحبه كتبغا. المقريزى: الخطط، ج٢ ص٥٠. ولا تنسى دار الأميرة المغولية خونداردوتكين ابنه نوغية السلاح دار الططرى التى تزوجها اثنين من سلاطين المماليك الأشرف خليل ثم أخوه الناصر محمد بن قلاوون. وكانت دارها من حقوق حارة زويلة. المقريزى: الخطط، ج٢ ص٦٣.

فاحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم ونظمهم العسكرية ولغاتهم وقوانينهم التى أتوا بها من مواطنهم - رغم اعتناق الكثير منهم الإسلام - على النحو الذى سنوضحه فى حينه، وباعتبار أن معظم هذه العناصر كانوا من الفرسان الذين سيصبحون العماد الرئيسى لبناء الجيش المملوكى الجديد كقادة وجند والذين كانوا بمثابة الدماء الفياضة التى تجرى فى عروق هذا الجيش، وهم أنفسهم الذين ارتفع مقامهم إلى القمة وأصبحوا سادة البلاد بعد أن تسنموا السلطة سياسياً وعسكرياً. وكان عزل هذه العناصر فى أحياء أو حارات خاصة بهم من قبل بيبرس جرياً على عادة المماليك وسلاطين المماليك الذين كانوا يشعرون - رغم إقامتهم فى مصر وحكمهم لها- بالغربة فى هذه البلاد لأنهم كانوا يدركون أنهم يحكمون شعباً ذا طبيعة مختلفة عنهم فى مصر والشام، ولذلك عاشوا كعنصراً منفصلاً عن بقية سكان البلاد، ولم يحاولوا - إلا فى النادر- أن يتقربوا إلى الأهالي أو يختلطوا بهم أو ينخرطوا فى صفوفهم، فظلوا هم وبنى جلدتهم من مغول القبجاق وغيرهم يمثلون طبقة أرستقراطية عسكرية حاكمة بوصفهم الجهاز الحربى الذى استأثر بحكم البلاد والدفاع عنها ضد الأخطار الخارجية. ويلاحظ أنه رغم الإجراءات السابقة التى اتخذها بيبرس وغيره من سلاطين المماليك فى الفصل بين هذه العناصر وطبقات الشعب المحكومة، إلا أن ذلك لم يمنع من تأثر المجتمع المصرى المملوكى بالعادات والتقاليد التى حملها هؤلاء، بل وتأثر المجتمع المملوكى بالنظم العسكرية والسياسية والقوانين التى حملوها معهم فى نزوحهم إلى مصر أو جلبهم إليها فى شكل رقيق من بلاد القرم، وهى الأمور التى سنوضحها فى دراستنا هذه.

ومن الملاحظ أيضاً أن بيبرس الأول جمع التتار الذين جاءوا إلى مصر، وأسكنهم بظاهر القاهرة أو داخل القلعة، ولم يرسلهم إلى ساحل الشام، على الرغم مما كان يبديه من اهتمام كبير بإنزال قبائل محاربة في هذا الساحل، على غرار ما فعله بالتركمان حين أنزلهم في يافا لحراستها بعد استعادته لها من أيدي الصليبيين عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م[1].

على أن هجرة المغول الوافدية المستأمنة شهدت تراجعاً كبيراً بعد انتهاء حكم بيبرس الأول حتى اعتلاء زين الدين كبتغا عرش السلطنة عام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م اللهم إلا تلك العناصر من مغول فارس الذين وقعوا في أسر السلطان بيبرس أثر انتصاره على مغول فارس في موقعة أبلستين عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م[2] أي قبل موته بعام واحد. وفي عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م شهدت مصر وفود تسعة عشر فارساً مع نسائهم وأولادهم زمن السلطان المنصور قلاوون[3]، وحوالي ثلاثمائة فارس عام ٦٩١هـ/١٢٩١م في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون[4].وقد ازدادت هجرة

---

[1] المقريزي: السلوك،ج١ ص٥٦٥.

[2] للاستزادة عن تلك المعركة راجع بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة،ج٩ ص١٣٥-١٣٦؛ المقريزي: السلوك، ج١ق٢ ص٦٢٨؛ أيضاً ملحق رقم (٣) بكتاب د. زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص٢٢٠-٢٢١ المأخوذ من كتاب رشيد الدين: جامع التواريخ؛ أيضا د. فايد حماد: العلاقات السياسية، ص١٠٤-١٠٦ معتمداً على مصادر.

[3] المقريزي: السلوك، ج١ ق٣ ص٧١٢. ويلاحظ أنه وفدت إلى مصر أيضاً خلال هذا العام رسل من مغول القفجاق وهم فقهاء مسلمون من قبل الخان تنامنكو (تودان منكو) رداً على سفارة كان قد أرسلها المنصور قلاوون إلى تودان منكو خان القبجاق يهنئه بتوليه العرش واعتناق الإسلام. ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٤٦.

[4] ابن كثير: البداية والنهاية ، ج١٣ ص٣٣٠. ويذكر أحد المؤرخين المحدثين أن الفرسان التتار هؤلاء وفدوا في زمن الناصر محمد بن قلاوون وليس في زمن الأشراف خليل. د. العريني: المماليك، ص٦١٢. على أن سيادته لم يشر إلى المصدر أو المرجع الذي استقى منه هذه الرواية.

الوافدية مرة أخرى على عهد السلطان زين الدين كتبغا المغولي الأصل الملقب بالعادل[1] عندما تسلم السلطة عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م وفي نفس فترة السلطان الناصر محمد بن قلاوون المنفي بالكرك وذلك عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م، حيث شهد هذا العصر أكبر الهجرات المغولية الوافدة إلى مصر المملوكية قاطبة، عرفوا باسم المغول الأويراتية[2] أو العويراتية[3]. وكان طبيعياً أن يرحب كتبغا بهؤلاء الأويراتية

---

[1] يذكر صاحب تاريخ سلاطين المماليك، تاريخ ابن الفرات أن كتبغا كان أحد المغول الذين أسروا في موقعة عين جالوت. المؤرخ المجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٣؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص١٩٢. وراجع الأسطورة التي قيلت حول ارتقاءه عرش السلطنة في نفس المصادر السابقة. على أن صاحب النجوم الزاهرة يعارض روايات المصادر السابقة ويذكر أنه كان ضمن التتار الذين أسروا في موقعة حمص الأولى التي كانت حوالي سنة ٦٥٩هـ في عهد الظاهر بيبرس الأول وكان من المغول الأويراتية وهم طائفة من الططر، ثم سار من كبار الأمراء المنصورية. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨ ص٥٥. ويذكر العيني أن أصل كتبغا من التتر غير معروف. العيني: السيف المهند، ص٤٧. ويميل كل من أستاذنا الدكتور سعيد عاشور، الأستاذة الدكتورة زبيدة عطا إلى الأخذ برواية أبو المحاسن أن كتبغا كان ضمن أسرى موقعة حمص الأولى التي وقعت بعد موقعة عين جالوت. د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص٢٠٤؛ د. زبيدة عطا في تعليقاتها بحواشي كتاب زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٨٦ ح(١). ونميل للأخذ بروايتي المؤرخ المجهول، وابن الفرات باعتبارهما أقرب إلى الفترة موضوع الدراسة.

[2] هكذا ورد اسمهم في بعض المصادر مثل بيبرس المنصوري: كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق د. عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٨٧، ص١٤٦؛ زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٩١؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٧ تحقيق د. سعيد عاشور، الهيئة المصرية للكتاب (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص٤٠٩؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص٢٠٣؛ المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٢.

[3] هكذا ورد اسمهم في بعض المصادر مثل المؤرخ المجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٣٨؛ ابن سباط: تاريخ ابن سباط، تحقيق د. عمر التدمري، ط. جروس برس طرابلس ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ج١ ص٥٠٦. والأويراتية أو العويراتية نسبة إلى أويرات أو عويرات=

وأن يعمل على إدخالهم الجيش المملوكى لأنهم من نفس جنسه[1]. وكانت الأسباب التى أدت إلى نزوح هؤلاء الأويراتية إلى مصر والشام تكمن فى الخلافات السياسية والصراع الداخلى الذى حدث فى السنوات العشر الماضية (أى قبيل عام ٦٩٥هـ) بين مغول فارس[2] لاسيما بعد اعتناق محمود غازان خان[3] مغول فارس

=وهو اسم لبعض قبائل المغول كانت تسكن فى أواسط آسيا، وبعد خضوعها لجنكيز خان ساعدته فى حروبه، وتزوج جنكيز خان وأحفاده منهم وكانت منهم إحدى زوجات منكو قاآن بن تولوى خان بن جنكيز خان وتسمى أوتول قويمش. راجع رشيد الدين: جامع التواريخ، ص١٩٥-١٩٦؛ أيضاً بارتولد: تركستان، ص٥٦٠ والحواشى؛ كذلك:

Howorth, History of the Mongols, vol. I, p681 et sqq.

ويقال إن الأويراتية كانوا فى قديم العهد كثيرين ينقسمون إلى شعوب كثيرة ولكل شعبه اسم معين ولقب مخصوص. وكان مقامهم فى موضع يقال له متكيس موران وهو وادى من أودية هذا الموضع. ولغة هؤلاء القوم تشبه لغة المغول وكان بينهم تفاوت يسير. د. زبيدة عطا فى شروحاتها لكتاب زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٠٠ ح٣، ص٢٩١ ح(١). معتمدة فى ذلك على مخطوط رشيد الدين الهمذانى المعروف باسم تاريخ جنكيز خان أو جامع التصانيف الرشيدية.

(١) يلاحظ أن هجرات الأويراتية إلى مصر فى عصر كتبغا لم تكن أول هجرات لهذا العنصر من المغول بل سبقتهم حالات من التسرب الفردى فى بعض الأحيان خاصة فى عهد المنصور قلاوون وبالتحديد عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م عندما وفد إلى مصر الشيخ على الأويراتى وكان قد أسلم وتبعه جماعة من أولاد المغل، فخرج بهم من تلك البلاد إلى الشام ثم إلى الديار المصرية ومثلوا بين يدى السلطان المنصور قلاوون فأحسن إليهم. ابن الفرات: تاريخه، ج٧ ص٢٥٠.

(٢) للإستزادة عن هذه الاضطرابات راجع مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٨؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٩١؛ التحفة الملوكية، ص١٤٦؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص٢٠٤؛ النويرى: نهاية الأرب، ج٢٧ ص٤٠٩؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢.

(٣) راجع ما كتبه بعض المؤرخين المحدثين عن الصراعات الداخلية لإيلخانات مغول فارس مثل د. فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية، ص١٣٢-١٣٣. معتمداً على مصادر؛ د. أحمد عبد الكريم سليمان: العنصرية، ص٤١-٤٢. معتمداً على مصادر ومراجع.

الإسلام[1]. والواقع أن المقام يضيق بالتعرض بالتفصيل لهذه الاضطرابات، إلا أنه يبدو أن هذا التحول قوبل برفض بعض أتباع الديانة البوذية من المغول الأويراتية الذين خشوا من أن يبطش بهم غازان، فهرب بعضهم إلى خارج فارس[2]. وكان معظم هؤلاء الهاربين من الأويراتية، وكان معظمهم يقيم فى بغداد وديار بكر حيث وصلت الرحبة ببلاد الشام وكان عددها يزيد على عشرة آلاف بيت[3] من عسكر بيدو بن طرغاى بن هولاكو بنسائهم وأولادهم ومعهم ماشية كثيرة ورخت[4] عظيم

---

[1] للاستزادة عن اعتناق غازان للإسلام راجع الرواية التفصيلية التى أوردها المؤرخ المجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٤-٣٦؛ كذلك د. فؤاد الصياد: السلطان محمود غازان خان واعتناقه الإسلام، ص٧-١٦ معتمداً على مصادر. ويرى شبولر أن اعتلاء غازان (قازان) للعرش يمثل نقطة فاصلة فى تاريخ دولة المغول فى فارس لأنه حالما اعتلى العرش أعلن اعتناقه للإسلام رسمياً على المذهب السنى. شبولر: العالم الإسلامي، ص٧٢-٧٣.

[2] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٩١؛ مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٨.

[3] هكذا ذكرت بعض المصادر عدد المغول الأويراتية النازحين إلى بلاد الإسلام. مثلاً مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٨؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١ ص١٨٥. فى حين تذكر بعض المصادر الأخرى أن عدد الوافدين منهم إلى الشام ومصر كانوا ثمانية عشر ألف بيت. راجع النويرى: نهاية الأرب، ج٧ ص٤٠٩؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص٢٠٣؛ المقريزى: السلوك، ج١ ص٨١٢. فى حين صمتت بقية المصادر الأخرى عن الإشارة إلى أعداد هؤلاء الأويراتية. مثلاً بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٩١،٢٩٢؛ التحفة الملوكية، ص١٤٦؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢-٢٣.

[4] الرخت: كلمة فارسية تفيد عدة معان منها: البضائع والماشية والخيل والعدة والرياش. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨ ص٦٠ حاشية رقم (٦) اعتماداً على قاموس استنجاس. ويذكر أبو المحاسن أن عددهم كان فوق العشرة آلاف ما بين رجل كبير وكهل وصغير وامرأة ومعهم ماشية كثيرة. راجع أبو المحاسن: المصدر السابق، ج٨ ص٦٠.

بقيادة طرغاى زوج ابنة هولاكـو[1]. وتذكر بعض المصـادر المملوكيـة أن العشـرة آلاف مغولى أويراتى بما معهم من نساء وأطفال وماشية وعدة وريـاش قد وصلـوا بأكملهم إلى مصر ورحب بهم كتبغا وبالغ فى إكرامهم ورتب لهـم الرواتـب[2]، وأن معظمهم ظل على وثنيته متمسكاً بديانتـه البوذيـة أو الشـامانية[3]، ويتضـح ذلـك فـى العادات التـى تمسكوا بهـا فـى مصـر والمخالفـة للإسلام[4]، والتـى أدت إلـى نفـور وكراهية المصريين منهـم واستثارة شـعور الأهـالي ونقمتهـم علـى السـلطان كتبغـا، فاضطر إلى إرسال عدد كبير منهم إلى ساحل الشام فى كل من عثليث والبقاع وفـى قاقون ومنطقة المرج من دمشـق، حيث أنزلهـم ووطنهـم هنـاك، واختلطـوا بالسـكان المحليين ودخلوا الإسلام وتفرقوا فى البلاد[5]. ويؤيـد أحد المؤرخيـن المحدثيـن فـى دراسة له عن العنصرية فى الجيش المملوكـى هـذه الروايـات مـن قبـل ابـن الفـرات وأبو المحاسن[6].

---

[1] بيبرس الدوادار: زبـدة الفكـرة، ج٩ ص٢٩١؛ النويرى: نهايـة الأرب، ج٢٧ ص٤٠٩؛ ابـن حبيب: تذكرة النبيه، ج١ ص١٨٥؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٦٠؛ ابن سباط: تاريخه، ج١ ص٥٠٦.

[2] بيبرس الدوادار: زبـدة الفكـرة، ج٩ ص٢٩١؛ ابـن حبيـب: تذكـرة النبيـه، ج١ ص١٨٥؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٦٠.

[3] لم يكن للمغول دين واحد بعينه يعتنقونه ويجمعون عليه، بـل كـانت طوائفهم تتنـازع الديانـات المختلفة من شامانية وبوذية ومسيحية وإسلام. ومع هذا فـإنهم كـانوا بصفـة عامـة بعيديـن عـن التعصب لمذهب دون آخر. د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٣٣-٢٣٦ (الجزء الخـاص بالديانـة عند المغول).

[4] سوف نتعرض بالتفصيل لمثل هذه الأمور فى حينها.

[5] ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص٢٠٤-٢٠٥.

[6] د. أحمد عبد الكريم سليمان: العنصرية، ص٤٣.

إلا أن هذه الروايات تعارض ما ذكرته بقية المصادر المملوكية الأخرى التي تشير وتؤكد أن مصر لم تستقبل كل هذا العدد الضخم من المغول الأويراتية بل أن السلطان كتبغا أرسل إلى نوابه بالشام يطلب منهم إنزال أعداد من هؤلاء الأويراتية في بعض المناطق من بلاد الساحل الشامي واستقدم منهم ما يزيد عن ثلاثمائة من كبراءهم وفرسانهم بما معهم من نساء وأولاد وماشية وعدة ورياش وأقطعهم كتبغا إقطاعات جليلة وقدمهم على غيرهم من الأمراء[1]، وأسكن معظمهم في منطقة خاصة بهم بالحسينية ولم يكونوا دخلوا في الإسلام بعد، وأثاروا اهتمام أمراء المماليك بجمالهم، وتزوج كثير منهم من نساء أويرات، واندمج معظم الأويرات ضمن مماليك الأمراء، واشتركوا في الفتن التي نشبت في مصر بين عناصر الجيش المملوكي[2]. ونميل للأخذ بهذه الروايات الأخيرة التي تؤكد أنه كان من الصعب على مصر أن تستقبل كل هذه الأعداد الضخمة من المغول في وقت واحد، والمؤكد أن جزء كبير من هذه العناصر المغولية قد تم إنزالهم في بعض مناطق الساحل الشامي قبل أن يصلوا إلى مصر، والباقي جلبوا إلى مصر حيث استقبلهم كتبغا وأسكنهم في المناطق المذكورة.

ويرجح أن السبب الرئيسي لاستقدام كتبغا لبني جلدته من مغول الأويراتية إلى مصر ومبالغته في إكرامهم ومحاباتهم وإنزال جزء كبير منهم في الساحل الشامي له جانب سياسي وعسكري ليكونوا عوناً له يستعين بهم على خصومه

---

(1) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص١٤٦؛ زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٩١-٢٩٢؛ مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٨-٣٩؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص٢٠٤؛ المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٢؛ ابن سباط: تاريخه، ج١ ص٥٠٦.

(2) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص١٤٦؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص٢٠٥؛ المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٢-٢٣. ويلاحظ أن هذه النصوص لها علاقة وطيدة بموضوع المؤثرات المغولية على المجتمع المملوكي اجتماعياً ولغوياً وسوف نعرض له بالنقد والتحليل في موضعه من هذه الدراسة.

وأعداءه فى داخل مصر وخارجها فى بلاد الشام مثل الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة وأمراء الشام الآخرين خاصة وأنه كان مغتصباً لعرش السلطنة المملوكية من الناصر محمد بن قلاوون المنفى بالكرك، وهذا يفسر أيضاً إعطاءه الكثير من الحرية داخل مصر لهذه العناصر مما أثار الحقد فى نفوس كبار رجال دولته[1] الذين بدءوا يتربصون به الدوائر، وانتهى الأمر بعزله عن الحكم على أيدى المنصور لاجين سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م وتسلطن هو بدله[2]، ثم أمر بالقبض على كبراء الأويراتية وسجنهم بالإسكندرية ومنهم طرغاى ثم قتلهم جميعاً، كما أمر بتفريق صغارهم على الأمراء فاستخدموهم فى مختلف الأغراض[3]، ودخلوا الإسلام واختلطوا بأهالى البلاد وتفرقوا فى الممالك[4].

---

(١) هكذا أكد بيبرس الدوادار المنصورى فى كتابيه: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٩٢؛ التحفة الملوكية، ص١٤٦.

(٢) عن الظروف التى أحاطت بخلع كتبغا وتولى لاجين راجع مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٤٠-٤٣؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٩٢-٢٩٦؛ التحفة الملوكية، ص١٤٧-١٤٨؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص٢٢١-٢٢٢؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٣؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٨٥. واختلفت روايات المصادر حول أصل المنصور لاجين. ففى حين يذكر ابن الفرات أنه كان مملوكاً لعلى بن عز الدين أيبك واشتراه المنصور قلاوون فيما بعد وجعله أميراً ثم نائباً عنه بدمشق. ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص٢٢٢. يذكر أبو المحاسن أنه كان مملوكاً للمنصور قلاوون (وليس لنور الدين على بن أيبك) اشتراه ورباه واعتقه ورقاه إلى أن جعله من جملة مماليكه. فلما تسلطن أمره وجعله نائباً بقلعة دمشق. أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٨٥. فى حين تذكر بعض المراجع الأوربية أن لاجين كان ألمانى الأصل.

Lane-poole: History of Egypt in the middle Ages, vol.VI, p. 240.

(٣) المقريزى: الخطط،ج٢ ص٢٣.

(٤) ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص٢٠٥؛ المقريزى: السلوك، ج١ ص٨١٢-٨١٣.

ويلاحظ أنه رغم قيام السلطان المنصور لاجين بتشتيت ونفي هؤلاء المغول الأويراتية فذلك لا يعني أن دورهم العسكري والسياسي قد تلاشى أيضاً، بل ظل الأويرات يمثلون قوة مؤثرة في الجيش المملوكي تعمل على استعادة مركزها الذي كانوا عليه أيام كتبغا، مثلما حدث في عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م أثناء الحروب بين الناصر محمد بن قلاوون ومحمود غازان خان مغول فارس، عندما شاركوا في مؤامرة كبيرة لاغتيال الأمير بيبرس الجاشنكير (السلطان بيبرس الثاني الجاشنكير فيما بعد ٧٠٨-٧٠٩هـ/١٣٠٨-١٣٠٩م) والأمير سيف الدين سلار[١] بزعامة أحد المماليك السلطانية ويسمى برنطاي عندما كان الجيش المملوكي معسكراً في تل العجول بالشام، وكان هدف المؤامرة إعادة زين الدين كتبغا المخلوع إلى السلطنة ثانية، وفشلت المؤامرة وقضي عليها وقبض على الكثير من الأويرات وشنقوا جميعاً[٢]. ويلاحظ أنه على الرغم من أن عدداً من الأويراتية قد استطاعوا الخروج من مصر إلى بلاد الشام قبل فترة بسيطة من عزل السلطان كتبغا المغولي، وأقاموا هناك ودخلوا في خدمة الناصر محمد بن قلاوون أثناء منفاه الاختياري بالكرك[٣]، معتقدين أن الناصر محمد، السلطان المخلوع، سوف يرد إليهم الجميل بعد استعادته لعرش السلطنة المملوكية، إلا أنهم لقوا جزاء كجزاء سنمار، بمجرد أن استعاد الناصر محمد عرشه، فقام بطرد أولئك الأويراتية من البلاد بتحريض من المماليك

---

(١) ربما هو الذي تنسب إليه الأقبية أو المعاطف السلارية وكانت أردية فوقانية يرتديها أمراء وقادة الجيش المملوكي في عصر سلاطين البحرية. ماير: الملابس المملوكية، ترجمة عن الألمانية صالح الشيتي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٢م، ص٤٢،٤٤ والحواشي.

(٢) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص١٥٦؛ زبدة الفكرة، ج٩ ص٣١٥ والحواشي؛ ابن أيبك الدواداري: الدر الفاخر، ص١٥؛ مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٥٨. على أن رواية صاحب التحفة الملوكية، وزبدة الفكرة احتوت تفاصيل للمؤامرة أكثر من رواية الدر الفاخر ورواية تاريخ سلاطين المماليك.

(٣) أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٢٥٨.

السلطانية لأنهم كانوا يقفون كعقبة أمامهم فى الخدمة السلطانية، فأغروا السلطان بهم وأكثروا من ذمهم والعيب عليهم كونهم خامروا سابقاً على أستاذيهم من الأمراء زمن كتبغا[1]. ويمكن القول أنه منذ استعادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون لعرشه أخذ دور الأويراتية بصفة خاصة يتلاشى ويخبو تدريجياً.

وعلى الرغم من قلة وفود الوافدية إلى مصر بعد سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م، جاءت هجرات أخرى من جماعات مختلفة فى أوقات متباعدة اقتصرت فى بعض الأحيان على حالات من الهجرات الفردية، مثلما حدث فى عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م عندما وفد إلى مصر أحد المقدمين التتار وهو حاكم آمد ويدعى سيف الدين جَنْغَلى ابن البابا[2] ومعه حريمه وأبنائه وكان أحد كبار القادة عند مغول فارس. وكان يناصح السلطان الناصر محمد بن قلاوون ويدله على عورات المغول، فأحسن السلطان إليه وأعطاه آمريه مائة فارس وحظى بمكانه كبيرة هو وأبناؤه. وكان السلطان يستشيره فى كثير من الأمور[3]. وهناك درب ضمن دروب القاهرة خارج باب زويله، ينسب إلى هذا الأمير المغولى يعرف باسم درب ابن البابا، ذكره المقريزى فى خططه[4].

وفى سنه ٧٠٤هـ/١٣٠٤م وفد من القبيلة الذهبية رسول من قبل أنغاى (نغاى أوتوقتو ٦٩١-٧١٢هـ/١٢٩١-١٣١٢م) ابن أخى الملك بركه خان وبصحبته جوارى كثيرة ومماليك وكانت عدتهم أربعمائة مملوك ومائتى جارية، فأخذ منهم

---

(1) المقريزى: السلوك، ج٢ ق١ ص٨٣.

(2) هكذا ورد اسمه فى المؤرخ المجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٢٨. وتذكره بعض المصادر باسم جنكلى بن البابا. بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية، ص١٧٥؛ ابن كثير: البداية، ج١٤ ص٢٩.

(3) مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٢٨؛ ابن كثير: البداية ج١٤ ص٢٩.

(4) المقريزى: الخطط، ج٢ ص١٣٣.

السلطان الناصر محمد بن قلاوون مائة وعشرين مملوكاً والباقى شروهم أمراء المماليك[1]. كما وصل فى نفس السنة (٧٠٤هـ/١٣٠٤م) حوالى مائتى فارس من المغول بنسائهم وأطفالهم، ومنهم بعض سلاحدارية محمود غازان خان مغول فارس ومنهم ابن سنقر الأشقر، وبعض أقارب الأمير سلار[2]. وفى سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م عبر جماعة من المغول الفرات وقدموا إلى دمشق ومنها إلى القاهرة عددهم حوالى مائة فارس بأولادهم ونسائهم وعليهم أمير كبير اسمه طاطاى[3].

وفى سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م وفدت إلى مصر ابنه أخى أزبك أو أوزبك خان القبيلة الذهبية (٧١٣-٧٤١هـ/١٣١٣-١٣٤١م) وفى معيتها القاضى الذى هدى أوزبك خان إلى الإسلام، وصحبها حوالى أربعمائة وأربعين مملوكاً، اشترى منهم السلطان حوالى مائتى مملوك واشترى الموالى الأمراء الباقين[4]. وفى سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م قدم البريد من دمشق بحضور أخت الأمير بدر الدين جنكلى بن البابا من الشرق وفى صحبتها جماعة تتارية، غير أنها توفيت بعد قدومها بثلاثة أيام، فاستدعى السلطان الناصر محمد بن قلاوون جماعتها إلى القاهرة وأقطع أفرادها إقطاعات ترضية للأمير جنكلى الذى كان يحتل مكانة كبيرة لدى السلطان المملوكى[5].

---

(١) ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص١٢٨.

(٢) ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص١٢٨؛ المقريزى: السلوك، ج٢ ق١ ص٥

(٣) المقريزى: السلوك، ج٢ ص١٧٤.

(٤) ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص٣٠٢- ٣٠٣؛ مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٧٠. ويلاحظ أن رواية تاريخ سلاطين المماليك مختصرة للغاية بمقارنتها برواية صاحب الدر الفاخر، كما أنها خلت من الإشارة إلى المماليك المغول الذين كانوا فى صحبة ابنة أخى أوزبك خان.

(٥) المقريزى: السلوك، ج٢ ص٢٣٦.

ولعل من أهم الشخصيات المغولية التى وفدت إلى مصر فى عهد الناصر محمد بن قلاوون هو القائد دمرداش[١] أوتمرتاش[٢] أو تيمورتاش[٣] بن جوبان النوين عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م ومعه ثلة من المماليك المغول فراراً من بطش أبى سعيد إيلخان مغول فارس (٧١٦-٧٣٢هـ/١٣١٦-١٣٣٥م) وذلك اثر ثورة والده جوبان الذى كان نائباً لأبى سعيد وقتله[٤]. ورغم إجماع المصادر العربية والفارسية على ترحيب السلطان الناصر بدمرداش هذا حيث أكرمه ورتب له الراتب الحسن وأنعم عليه إنعاماً كثيرة، وأقام فى خدمته الأمير سيف الدين طوغان الجاشنكير[٥]، إلا أن هذه المصادر اختلفت حول المصير الذى آل إليه دمرداش أو تمرتاش هذا. ففى حين أن أحد المصادر المملوكية المعاصرة لهذه الفترة وشاهد عيان لها تذكر أن دمرداش توفى بعد فترة قصيرة من وصوله إلى مصر بسبب وعكة أصيب بها فى نفس السنة[٦]، إلا أن بقية المصادر تذكر أن السلطان الناصر محمد قبض عليه وعلى بعض مماليكه بتهمة إثارة الفتن فى مصر وتحريض السلطان الناصر للاستيلاء على بلاد الروم، ومحاولة إساءة العلاقات بينه وبين أبى سعيد إيلخان مغول فارس

---

(١) هكذا ورد اسمه فى ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص٣٤٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢ ص١٨٠؛ مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٧٩.

(٢) كذلك ورد اسمه فى ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، ط. القاهرة ١٩٦٦، ج٢ ص١١٢ (ترجمة رقم ١٦٩٩).

(٣) هكذا ورد اسمه فى البدليسى: شرفنامة، ج٢ ص٣٠.

(٤) للاستزادة عن ثورة جوبان هذا وقتله. راجع ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص٣٤٥-٣٤٦؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢ ص١٠٥-١٨١؛ البدليسى: شرفنامة، ج٢ ص٣٠.

(٥) ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص٣٤٨؛ المؤرخ المجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٧٩؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢ ص١٨٠؛ المقريزى: السلوك، ج٢ ص٣٩٢-٣٩٣.

(٦) ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص٣٤٨.

الذى كانت تربطه بالسلطان المملوكي علاقات طيبة، حيث اعتقل فى برج السباع ثم أمر بقتله وفرق مماليكه على الأمراء[1].

والواقع أن العلاقات الطيبة أو الودية بين إيلخان مغول فارس (أبو سعيد) والسلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون أدت إلى وفود العديد من المغول إلى مصر مثلما حدث فى عام ٧٣٢هـ/١٣٣٥م عندما وفد رسول إيلخان مغول فارس ومعه هدايا إلى السلطان الناصر محمد من جملتها عشرة مماليك، ومغنيتين[2] من المغول. ولعل من أشهر الشخصيات التى وفدت إلى مصر قادمة من دولة المغول القفجاق الأمير سيف الدين قوصون الناصرى وكان فى صحبة المجموعة التى جاءت إلى مصر صحبة خوند ابنه أخى أزبك خان القبيلة الذهبية عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، فاشتراه الناصر وبالغ فى إحسانه حتى زوجه من ابنته عام ٧٢٧هـ/١٣٢٧م وهى ثانية بنت زوجها الناصر لمماليكه[3]، وتزوج السلطان من أخته[4]، وصار قوصون من أكابر أمراء الدولة وأعيان المملكة[5].

---

(١) المؤرخ المجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٨٩؛ النويرى: نهاية الأرب، مخطوط دار رقم ٥٤٩ معارف عامة، ج٣١ لوحة ٨٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢ ص١٨٠؛ أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ط. دار المعرفة (بيروت بدون تاريخ) ج٤ ص٩٨-٩٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤ ص١٣٣؛ المقريزى: السلوك، ج٢ ص٢٩٥-٢٩٩؛ البدليسى: شرفنامة، ج٢ ص٣٠. ويلاحظ أن روايات صاحب تذكرة النبيه، تاريخ سلاطين المماليك، شرفنامة أشارت إلى قيام السلطان الناصر بالقبض على دمرداش وقتله إلا أنها لم تشير إلى السبب الحقيقى الذى دعا السلطان المملوكى لقتله. وإن أشارت رواية تذكرة النبيه إلى ذلك بطريقة غامضة قائلاً " ثم قبض عليه (أى على دمرداش) لأمر اقتضى ذلك ". ابن حبيب: المصدر السابق، ج٢ ص١٨٠.

(٢) ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص٣٦١.

(٣) أبو المحاسن: النجوم، ج١٠ ص٤٦؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٣٠٧-٣٠٨.

(٤) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٣٠٨.

(٥) أشار إليه ابن بطوطة فى رحلته باعتباره أحد وجهاء مصر المملوكية فى عصر الناصر محمد أثناء زيارة ابن بطوطة لمصر. ابن بطوطة: رحلته، ص٦٢. وأشاد بنشاطه العمرانى هناك.

وعندما توفى الناصر محمد تعضب قوصون إلى المنصور سيف الدين بن أبى بكر بن الناصر محمد حتى سلطنة وقام قوصون بتدبير مملكته[1]. وبعد تولية الملك الأشرف علاء الدين كجك[2] السلطنة[3]، أصبح قوصون نائباً للسلطنة بعد أن رفضها الأمير أيدغش أمير آخور عام ٧٤٢هـ/١٣٤٢م[4]، فارتفع شأنه بالديار المصرية وكان هو المحرك الرئيسى لأمور الدولة داخلياً وخارجياً حتى استبد بالأمور، ونتيجة لاستبداده هذا وسياسته المناهضة لكبار الأمراء ثاروا وقبضوا عليه ونفوه إلى الإسكندرية حيث قتل خنقاً هو وألطنبغا نائب الشام عام ٧٤٢هـ/١٣٤٢م[5].

وفى سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م وهى السنة التى توفى فيها الناصر محمد، جاءت هجرة كبيرة أخرى من الوافدية المغول إلى مصر بسبب ما انتشر فى الشرق من طاعون وغلاء شديدين[6]، وهو تأكيد لوجهة نظرنا السابقة حول الأسباب التى

---

(1) أبو المحاسن: النجوم، ج١٠ ص٣.

(2) كجك: لفظ أعجمى معناه صغير. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠ ص٢١ حاشية (١).

(3) ابو المحاسن: المصدر السابق، ج١٠ ص٢١.

(4) أبو المحاسن: النجوم، ج١٠ ص٢١-٢٢.

(5) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣ ص٣٣؛ ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، ج٣ ص٣٤٢-٣٤٤؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٣٠٨؛ أبو المحاسن: النجوم، ج١٠ ص٤٧. ويلاحظ أن هناك العديد من المنشآت والمبانى المدنية والدينية فى مناطق عديدة فى مصر تنسب إلى قوصون هذا، كما أشارت بذلك العديد من المصادر. راجع مثلاً ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣ ص٣٣-٣٤؛ مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٨٢؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٧١-٧٢،٨٥،٩٣،٣٠٧. وسوف نتعرض لهذه الأمور بالشرح والتفصيل فى موضعها المناسب من هذه الدراسة.

(6) المقريزى: السلوك، ج٢ ق٢ ص٥١٥.

أدت إلى نزوح أو هجرات المغول إلى مصر وبصفة خاصة السبب الاقتصادى وقد أذن الناصر محمد لنائب حلب أن ينزلهم بنيابته، وجاء منهم إلى مصر نحو مائتى فارس جعل بعضاً منهم فى الطباق، وأسكن منهم عدة فى القلعة، وآمر منهم جماعة، وفرق الباقى على الأمراء[١].

ويمكن القول أنه بانتهاء هذه الموجه من المغول عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م نصل بذلك إلى آخر الهجرات المغولية الكبرى إلى مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، إذ أن المصادر التى لدينا سواء أكانت عربية أم فارسية معاصرة لهذه الفترة أو قريبة منها أو متأخرة عنها لم تشر من قريب أو بعيد لوفود عناصر أخرى من المغول سواء فى شكل جماعى أو حتى فى شكل فردى[٢].

---

[١] المقريزى: السلوك، ج٢ ص٥١٦-٥١٧.

[٢] يلاحظ أنه برغم غلبة عناصر المغول القبجاق بالإضافة إلى الأويراتية ومغول فارس على الجيش المملوكي فى عصر دولة المماليك الأولى، فكانوا هم الأكثرية وأصحاب الرتب العليا فيه إلا أن السلطان المنصور قلاوون حرص فى عهده على شراء واستقدام أعداد كبيرة من العناصر القوقازية الجنس التركية الأصل والمعروفين فى المصادر العربية باسم الجركس أو الجراكسة أو الشركس وموطنهم المرتفعات الجنوبية من بلاد القبجاق فيما بين البحر الأسود وبحر قزوين، وأنزلهم السلطان قلاوون فى القلعة وذلك إمعاناً في إبعاد العناصر الشمالية من مغول القبجاق الذين تألفت منهم فرق الظاهرية، ومماليك بيبرس وأولاده فى الجيش المملوكى، وفى محاولة لكسر شوكتهم ونفوذهم فى الجيش المملوكى راجع د. السيد الباز العرينى: المماليك، ص٦٤-٦٥. معتمداً على مصادر؛ د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص٢٢٣-٢٢٥. معتمداً على مصادر ومراجع. أيضاً راجع الدراسة القيمة التى كتبت حول ذلك للدكتور أحمد عبد الكريم سليمان: العنصرية، ص٥٧-١١٥ (المبحث الثالث الخاص بالصراع بين الأتراك والجراكسة فى الجيش المملوكى).

ثالثاً: التأثيرات المغولية فى مصر فى عصر دولة المماليك البحرية :

١- المؤثرات المغولية العسكرية (أو التأثير المغولي على بنيان الجيش المملوكى):

وعلى هذا النحو انتشرت الطوائف المغولية من مغول قبجاق وأويرات وفرس بكثرة فى مصر فى عصر دولة المماليك البحرية حتى أصبحت مصر بهم "آهلة المعالم محمية الجوانب[1]"، "وغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل (المغول) وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم[2]" على النحو الذى أكدته المصادر المملوكية السابقة.

وهذه النصوص السابقة وغيرها من نصوص المصادر المملوكية المعاصرة أو القريبة من الفترة موضوع الدراسة تؤكد على مدى تأثيرات العناصر المغولية وعلى رأسها مغول القبجاق على الدولة المملوكية والمجتمع المملوكى نفسه فى الجوانب العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية وحتى تأكيدها على مدى النشاط العمرانى الذى قامت بها هذه العناصر وغيرها فى إقامة العديد من المنشآت الدينية والمدنية فى مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، أى مدى التأثير المغولى على التنظيم العام لدولة المماليك وهو الأمر الذى سنتناوله بشكل مفصل ودقيق بعد قليل.

فعلى الرغم من مدى حرص أعظم سلاطين المماليك الظاهر بيبرس الأول البندقدارى، عندما استقدم هؤلاء المغول من بنى جنسه إلى مصر عن طريق الشراء أو عن طريق تشجيع هؤلاء على الوفود إلى مصر أو عن طريق نزوحهم من بلادهم إلى مصر نتيجة لعوامل سبق التعرض لها، على أن يقوم بتخصيص أحياء أو أماكن سكنى لهم بالقاهرة مثل منطقة اللوق أو باب اللوق وداخل القلعة

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٨.

(٢) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢٠ سطر ١٨.

مركز الحكم لسلاطين المماليك، ولضمان عدم احتلاطهم بطبقات الشعب المصرى جرياً على العادة المملوكية فى عدم التقرب من سكان البلاد أو الاختلاط أو الاحتكاك بهم، خاصة وأنه كان يدرك أن هده العناصر كانت تتسم بخصائص وطبائع مختلفة تماماً عن طبائع الشعب المصرى، إلا أن نلك لم يمنع من تسرب العديد من المؤثرات العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية، بل وامتد هذا التأثير المغولى حتى إلى الملابس العسكرية التى كان يرتديها قادة وأمراء وجند الجيش المملوكى، والملابس التى كان يرتديها سلاطين المماليك أنفسهم فى الحفلات والمناسبات، كما أخذ الجيش المملوكى العديد من الأسلحة والدروع التى أتى بها المغول القبجاق وغيرهم من المغول إلى مصر[1]، وحتى الألقاب التى اتخذها سلاطين الدولة المملوكية الأولى، وكان معظمهم من أصل قبجاقى أو من مغول القبجاق، كانت مغولية أو تركية الأصل وهى تعبر عن أسماء أشياء أو حيوانات فى اللغات التركية والتترية[2]، وهى ألقاب لها جانب سياسى ولغوى أى أنها تعبر عن تأثير مغولى واضح على الدولة المملوكية سياسياً ولغوياً، أى أن التأثير امتد داخل هيكل الدولة المملوكية. ولم تحول القيود التى فرضها بيبرس دون انتشار ظاهرة الزواج من قبل مغوليات سواء كن أميرات أو جاريات من أبناء القادة أو الجند المغول الذين وفدوا إلى مصر فى شكل وافدية أو مستأمنين، وذلك من قبل السلاطين المماليك أنفسهم أو حتى من قبل أمراء وقادة مماليك غير المغول، بالإضافة إلى انتشار العديد من العادات والتقاليد المغولية، بل وانتشار اللغة المغولية نفسها بين

---

(1) أكدت ذلك المصادر المملوكية وبعض المراجع الأوربية الحديثة. مثلاً ماير: الملابس المملوكية، ص٣٣-٣٤،٣٩-٤٠، ٤٢، ٥٦.

(2) المقريزى: السلوك، ج١ ق٢ ص٢٥٨ والحواشى؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٧٢؛ كذلك: Lane-poole, Saracenic Art, p. 4.

أفراد الشعب والأمراء في مصر والشام على النحو الذى أكدته المصادر المملوكية والذى سنعرض له في حينه.

ففيما يتعلق بالمؤثرات أو التأثيرات العسكرية والسياسية على الدولة المملوكية من ناحية النظام العسكرى المملوكى والتنظيم أو البناء السياسى للدولة وعلى رأسها السلطان المملوكى نفسه وبالتحديد منذ عهد بيبرس الأول نفسه إلى نهاية حكم الناصر محمد بن قلاوون، فمن المعروف أن المؤثرات الأجنبية الدخيلة تعبر عن نفسها تلقائياً، ونظراً لأن أصل المماليك، كان من أواسط آسيا، فلا عجب أن نجد كثيراً من العادات والتقاليد بما فيه النظام العسكرى المعمول به على ضفاف الفولجا، هذا النظام لا عجب أن نجده أيضاً على ضفاف النيل، أى متمثلاً فى النظام العسكرى الجديد الذى أنشأه السلطان بيبرس الأول بصفة خاصة، والذى تأثر تأثراً تاماً بالنظم المغولية العسكرية وذلك فيما يتعلق بفرق الجيش المملوكى وتنظيماته وأرباب الوظائف فيه من الأمراء والأجناد والرتب والألقاب العسكرية التى استحدثت مع وفود المغول القبجاق من بنى جنسه وانخراطهم فى سلك الجيش المملوكى، والألفاظ أو الاصطلاحات العسكرية المتعارف على استخدامها داخل فرق الجيش وفى ميدان الحروب والقتال، وحتى الملابس العسكرية لهذا الجيش فقد تأثرت بنفس الأزياء أو الملابس المغولية، وكذلك بعض أنواع الأسلحة، وحتى التكتيكات العسكرية التى استخدمها الجيش المملوكى فى حروبه مع المغول (مغول فارس بصفة خاصة) أو مع الصليبيين وهى التى مكنت بيبرس من إحراز سلسلة من الانتصارات المتتالية والحاسمة ضد هذين الخطرين؛ كانت مأخوذة من التكتيكات العسكرية المغولية بمعنى تأثر فن الحرب والقتال عند المماليك بفن الحرب والقتال لدى المغول على النحو الذى أكدته المصادر المملوكية والمغولية بشكل صريح وواضح أو بالتلميح دون التصريح على النحو الذى سنؤكده بعد قليل.

إن السلطان الظاهر بيبرس الأول وهو يبنـى جيشاً مملوكياً جديداً وقوياً ويضع البذور الأولى له لمواجهة الأخطار التى لا تزال تتربص بمصر وهما خطر المغول والصليبيين معتمداً في ذلك علـى عنصـر رئيسـى من بنـى جنسه الترك أو المغول القبجاق، والذين كونوا الأكثرية في جيشه وكانوا هـم أصحـاب الرتـب العليا فيه، بل وأصبحوا هم العماد الرئيسى لهذا الجيش كجند وقادة وأمـراء وكـانوا بمثابة الدماء الفياضة التى تجرى فى عروق هذا الجيش، وصحيح أن تعصب أو انتصار بيبرس لهـذا العنصـر بـالذات وتفضيله علـى غيره من العنـاصر وجعله الدعامـة الأساسية للجيش المملوكي يعتبر إثارة لنعرة العصبية أو العنصرية فـى تـاريخ دولـة المماليك بصفة عامة وتاريخ الجيش المملوكي بصفة خاصـة[1]، إلا أنـه كـان مدركـاً تماماً لقيمة الترك أو المغول القبجاق من كـل النواحـى باعتبـارهم "مـن خيـار الـترك أجناساً لوفائهم وشجاعتهم وتجنبهم الغدر، مع تمام قاماتهم وحسن صورهـم وطرافـة شـمائلهم[2]". وعلـى سـواعدهم وأكتـافهم بنـى هـذا الجيـش وبـرزت القـوة العسـكرية للجيش المملوكي فى معظم فترات الدولة المملوكية فى عصرها الأول، وصحيح أنـه كانت توجد عناصر بالجيش المملوكى بالإضافة إلى المغول القبجـاق معظمهـا قريبـاً من جنس الترك، وتندرج تحت نفس الاسم وإن كانت من قبائل مختلفة عن القبجـاق، وأدت دوراً بـارزاً فـى الجيـش المملوكـى سـواء فـى الحـروب الخارجيـة للسـلطنة المملوكية أو فى الأحداث الداخلية، إلا أنـه يلاحـظ –كمـا ذكرنـا آنفـاً– أنـه منذ أيـام

---

(1) راجع الدراسة الشيقة التى كتبها د. أحمد عبد الكريم سليمان: العنصريـة وأثرهـا فـى الجيـش المملوكى، ص١٣–١١٥. معتمداً على مصادر ومراجع.

(2) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٨. ويلاحظ أن أقاليم القبجاق – الموطن الأصلي لهذه العناصر المغولية أو التركية كانت مشهورة بوجود أفضل المصـارعين فـى آسيا، ولهذا كـان المغول فى عصر جنكيز خان يستدعون مهرة المصارعين من هذه الأقـاليم خاصـة مـن أقـاليم الخطا. د. فؤاد الصياد: المغول، ص ٢٤٩.

الظاهر بيبرس الأول كثرت العناصر المغولية الوافدة إلى مصر ومعظمها بتشجيع من بيبرس نفسه، حيث انضم معظمهم إلى الجيش المملوكي، وانتشر الباقى فى مصر والشام ولعبوا دوراً مؤثراً فى الأحداث السياسية والمؤامرات العسكرية التى نشبت بين طوائف المماليك وبلغ عدد المغول الوافدين إلى مصر بنسائهم وأبنائهم فى عهد بيبرس وحده حوالى ثلاثة آلاف[1]، وظلت جموع الوافدية تصل تباعاً إلى نهاية عصر الناصر محمد بن قلاوون، وهؤلاء ظلوا مع أبناء عمومتهم من سلاطين المماليك يمثلون طبقة أرستقراطية عسكرية بوصفهم الجهاز الحربى الذى استأثر بحكم البلاد والدفاع عنها، وأصبحت بهم مصر "محمية الجوانب، منهم أقمار مواكبها، وصدور مجالسها، وزعماء جيوشها، وعظماء أرضها، وحمد الإسلام مواقفهم فى حماية الدين"[2]. ويذكر المقريزى نصاً هاماً يشير إلى الأعداد الضخمة التى وفدت إلى مصر من مغول القبجاق وغيرهم فى عصر آل قلاوون بصفة خاصة فيذكر "أنه بلغت عده المماليك السلطانية فى أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة، فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها إلى عشرة آلاف مملوك، وجعلهم طوائف فأفرد طائفتى الأرمن والجركس، وسماهم البرجية لأنه أسكنها فى أبراج بالقلعة فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة، وأفرد جنس الخطا والقبجاق وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمردية وجعل منهم جمدارية وسقاه وسماهم

---

(1) هكذا ذكر عددهم أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص١٩٠. ويلاحظ أن هذا العدد لا يشمل الأعداد الأخرى التى كانت تتمثل فى أسرى المغول من معركة عين جالوت وكانت أعدادهم كثيرة كما يذكر المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢١.

(2) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٨. ويستشف من المصادر المملوكية أيضاً أن أعداد المغول لا تشمل أيضاً الأسرى من المغول من المعارك الأخرى التى تلت معركة عين جالوت أثناء الصراع المملوكى المغولى فى عهد بيبرس الأول.

خاصكية[1]. " كما شغف الناصر محمد بن قلاوون بجلب المماليك من بلاد أزبك أحد خانات مغول القبيلة الذهبية وبلاد توريز .... [2]".

وكان بيبرس الأول الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المماليك والجيش المملوكى، يدرك أن عنصر المغول القبجاق الوافدة الذين جاءوا ومعهم نسائهم وأطفالهم يحملون على أكتافهم العادات والتقاليد المغولية وكثير من النظم المغولية الأخرى وما اعتادوا عليه فى أوطانهم من تنظيمات عسكرية وسياسية وتمسكهم الشديد بهذه العادات والنظم رغم أن كثيراً منها يخالف الشرائع الإسلامية، وكان بيبرس يدرك تماماً أيضاً مدى الحرص الشديد لهذه العناصر من بنى جنسه – وكان هو نفسه منهم – على الروابط التى تربطهم بأصولهم من ناحية، وببعضهم البعض من ناحية أخرى، ووجدوا فى هذه الروابط وما اعتادوه فى بلادهم الأصلية وما ينشدونه من أمان وطمأنينة نفسية، وأن محاولة فرض أى نظام عسكرى – أثناء بناءه للجيش المملوكى الجديد – يخالف ما اعتاده هؤلاء الجند والقادة من القبجاق وغيرهم سوف يؤدى إلى صعوبة مهمته، فى وقت كان عليه أن يقوم ببناء هذا الجيش الجديد فى وقت قصير للغاية وعلى أسس عسكرية قوية ثابتة لمواجهة التهديدات المستمرة من قبل المغول والصليبيين للدولة المملوكية الناشئة فى مصر وبلاد الشام، وحتى القوانين التى كانت تحدد العلاقات بين القادة والجند فى الجيش كان عليه أن يأخذها من القوانين المغولية، وبذلك كانت التنظيمات العسكرية التى أدخلها بيبرس الأول على الجيش المملوكى تتشابه إلى حد كبير مع النظم المغولية

---

[1] المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢١٤. ويفهم من هذا النص أن عدد الطوائف المغولية فى مصر حتى عهد الأشرف خليل ومعهم مغول القبجاق والخطا حوالى ستة آلاف.

[2] المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢١٤. ويلاحظ أيضاً أن هذه الأعداد لا تشمل أسرى المغول فى المعارك التى كانت بين المماليك والمغول فى عهد آل قلاوون.

إن لم تكن تطبيقاً حرفياً لهـا لضمـان الاستقرار فـي الجيش المملوكـي الجديـد علـى النحو الذى أكدته المصـادر[1].

وعلى ذلك " سار بيبرس على قـاعدة ملـوك التتـار وغـالب أحكـام جنكـيز خان مـن أمـر اليسـق والتـورا"، " واليسـق كلمـة مغوليـة معناهـا الـترتيب، والتـورا: معناها المذهب باللغة التركية أو المغوليـة"[2]. وبذلـك " أحـب بيـبرس أن يسـلك فـى مسلكه بالديار المصريـة طريقـة جنكيز خـان وأمـوره، ففعـل مـا أمكنـه ورتـب فـى سلطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بديار مصـر (تأثراً بالقوانين المغوليـة) مثـل ضـرب البوقات وتجديد الوظـائف"[3]. وعلى هذا كانت " الياسا المغولية " هى الأسـاس الـذى بنـى عليـه الممـاليك منـذ عهـد بيـبرس الأول أنظمتهـم عليهـا خاصـة مـن النـاحيتين العسكرية والسياسية.

والياسا التـى أخـذ منهـا بيـبرس بعـض الأحكـام أو النظـم المغوليـة، كلمـة مغولية[4] تكتب بصـور مختلفـة فـى المصـادر العربيـة والفارسية فنجـد ياسـا وياسـة

---

(1) مثـلاً المقريـزى: الخطـط، ج٢ ص٢٢١؛ أبـو المحاسـن: النجـوم، ج٦ ص٢٦٨-٢٦٩؛ ج٧ ص١٨٢-١٨٣.

(2) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢٠؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٢٦٨، ج٧ ص١٨٢-١٨٣. وأصل لفظة اليسق سى يسا. وهى كلمة مغولية مركبة من كلمتين: سـى: ثلاثـة، يسـا: الـترتيب فمعناها التراتيب الثلاثة، إلا أن أهل مصر والشام حرفوا هـذه الكلمـة إلـى سياسـة لثقل الكلمـة الأولى، بعد أن أضافوا إليها حرف السين فى أولها ثم الألـف والـلام. ويذكـر المقريـزى معقبـاً على ذلك: "وظن من لا علم له أنها كلمة عربية وما الأمـر فيهـا إلا مـا قلـت لـك". المقريـزى: الخطط، ج٢ ص٢٢٠.

(3) أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٢٦٨-٢٦٩.

(4) الياسا: صيغتها الكاملة هى اليساق وبالمغولية جساق. بارتولد: تركستان، ص١١٤ حاشية رقـم ٢٦٤.

ويساق وياساق ويسق[1]، وهى كلمة لها معان كثيرة منها: أنظمة، قوانين وقواعد، ومراسيم أو أوامر ومقررات[2]؛ وتشمل مجموعة الأحكام المكتوبة بالخط الأويغورى التى أقرها جنكيز خان ويطلق عليها أيضاً كتاب " الياسا الكبير[3] " (ياسا نامه بزرك)[4]، وذلك لتنظيم حياة المغول الذين كانوا يعيشون من قبل وضعها كقطعان من الذئاب لا ضابط لها ولا رابط وبعدها تحولوا إلى جيوش منظمة تعرف كيف ترسم خططها بدقة وإحكام، وتغير على الأمم المتحضرة كأنها الإعصار المدمر[5]. وقد نظم جنكيز خان فى قوانين الياسا العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، كما حدد فيه علاقة الفرد بالمجتمع، وكانت بمثابة القانون الأساسي للدولة، والذى نظم الحياة العامة المغولية لمدة طويلة بعد موته[6]. ويلاحظ أن بنود أو أحكام هذه الياسا رغم بساطتها إلا أنها تعبر أو تتسم بقسوة شديدة، وقد أورد المقريزى فى خططه العديد من مواد هذا القانون المغولى،

---

[1] أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٢٦٨؛ ج٧ ص١٨٣؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢٠؛ أيضاً د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٣٧. ويلاحظ أن التسمية الصحيحة لهذه القوانين المغولية هى ياسة أو ياسا كما أكد بذلك المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢٠.

[2] د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٣٧؛ د. سعد الغامدى: الياسا، مجلة كلية آداب الإسكندرية، مجلد ٣٧، ص ٧٨ ح(١).

[3] ابن بطوطة: رحلته، ص٦٤٥ ويطلق عليها اسم اليساق أيضاً؛ أيضاً بارتولد: تركستان، ص١١٤ والحواشى. ويذكر أحد المستشرقين الألمان أن صفات جنكيز خان الفائقة وشخصيته الفذة لا تظهر فى انتصاراته العسكرية فحسب، بل فى ميادين أخرى لا تقل عن الميدان العسكرى، وذلك بأن ننظر إليه بإكبار وإعجاب إلى منجزاته كمشرع قانونى ومنظم للأمة المغولية وذلك عند وضع قوانين الياسا كقانون أساسى للدولة المغولية. شبولر: العالم الإسلامي، ص٢٧.

[4] د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٣٧.

[5] د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٣٨-٢٨٩.

[6] راجع ما كتبه عنها شبولر: العالم الإسلامي، ص٢٧-٢٨.

ويعتبر ما ذكره عنها أفضل عرض مفصل عن الياسا أورده لنا مؤرخ من العصر المملوكي[1].

والمتأمل لنصوص الياسا التى أخذ منها بيبرس وغيره بعض أحكامها فيما يتعلق بالتنظيم العسكرى للجيش المملوكى والقوانين المنظمة له، وفى النظام السياسى للدولة، يلاحظ أن بعضها يوافق الشريعة الإسلامية، ولكن أكثرها مخالف لها على حد تعبير القلقشندى الذى يقول " ثم الذى كان عليه جنكيز خان فى التدين، وجرى عليه أعقابه بعده، الجرى على منهاج الياسة التى قررها، وهى قوانين ضمنها من عقله وقررها من ذهنه، رتب لها أحكاماً وحدذ فيها حدوداً وربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية، وأكثرها مخالف ولذلك سماها الياسة الكبرى، وقد اكتتبها وأمر أن تجعل فى خزانته تتوارث عنه فى أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته" ......، وربما دان به من تحلى بحلية الإسلام من ملوكهم[2]". وكان بيبرس يدرك أن هؤلاء الوافدين إلى مصر من بنى جلدته جنداً وقادة قد نشئوا على التمسك بالياسا الكبرى وعادات وتقاليد المغول مما تضمنته الياسا - رغم اعتناقهم الإسلام -

---

[1] المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢٠-٢٢١؛ أيضاً القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٣١١. ويلاحظ أن المقريزى نقل النصوص الخاصة بالياسا المغولية من كتاب العمرى: مسالك الإبصار، إلا أنه لم يذكر ذلك. راجع الدراسة التحليلية النقدية التى قام بها أحد الكتاب المحدثين حول هذا الموضوع. د. سعد الغامدى: الياسا، مجلة آداب الإسكندرية، عدد ٣٧ ص٨٠-٨٢.

ويلاحظ أن تاريخ إصدار هذه القوانين كان ما بين سنوات ٦٠٣-٦١٥هـ/١٢٠٦-١٢١٨م. راجع د. سعد الغامدى: الياسا، مجلة آداب الإسكندرية، مجلد ٣٧ ص٨٢. معتمداً فى ذلك على رأى المستشرق الروسى فالنتين ريازانوفسكى فى كتاب المعنون باسم Fundamental principles of Mongol law. ويضيف د. سعد الغامدى استناداً على رأى ريازانوفسكى أن التأثير الصينى كان شديداً على هذه القوانين التى أصدرها جنكيز خان ويوافقه د. الغامدى على ذلك فى مقاله السابق، عدد ٣٧ ص٨٢،٨٤.

[2] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٣١٠-٣١١.

وينطبق هذا القول فى حق بركه خان نفسه صاحب قبيلة مغول القبجاق الذهبية الذى اعتنق الإسلام، فإنه على الرغم من إسلامه هو وقومه، كان لا يـزال متمسكاً بكثير من عادات التتار وتقاليدهم مما تضمنته الياسا على النحو الذى أكدته بعض المصادر المملوكية(١).

ويبدو أن مغول القبجاق المستأمنين إلى مصر حرصوا على تنشئة أطفالهم – الذين أتوا بهم إلى مصر أو حتى الذين ولدوا فى مصر – على التمسك بالعادات والتقاليد والنظم التى احتوتها قوانين الياسا، رغم اعتناقهم الإسلام، وكان بيبرس مدركاً لذلك تماماً، ويؤكد وجهة النظر تلك ذلك النص الفريد الذى أورده لنا المقريزى فى بيان جزل معبراً عن ذلك بقوله" وكانوا (أى المغول وخاصة مغول القفجاق) إنما ربوا بدار الإسلام ولقنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة المحمدية، فجمعوا بين الحق والباطل وضموا الجيد إلى الردئ وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ..... واحتاجوا فى ذلك أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيز خان والإقتداء بحكم الياسة"(٢).

وكيفما كان الأمر، فقد قسم المستشرق الروسى رايازنوفسكى Riasanovsky الياسا إلى خمس مجموعات: مجموعة قوانين تتعلق بالحقوق المدنية، المجموعة الثانية تتعلق بالضوابط أو التنظيمات العسكرية، وأخرى جنائية تشمل قوانين للعقوبات والتى تتسم بقسوة شديدة، ورابعة قوانين خاصة، وخامسة

---

(١) ابن أبى الفضائل: النهج السديد، ص١١٦-١١٧؛ أيضاً المقريزى: السلوك، ج١ ق٢ ص٥. ويرى أحد أقطاب الدراسات المغولية المحدثين أنه مما لاشك فيه أن أغلب نصوص الياسا كان مخالفاً تماماً لما فى الشريعة الإسلامية التى تحترم حقوق الفرد، وتمنع الطغيان والاستعباد. راجع د. فؤاد الصياد، المغول، ص٢٤١-٢٤٦. معتمداً على مصادر. أيضاً د. سعد الغامدى: الياسا، مجلة آداب الإسكندرية، مجلد٣٧ ص ٨٠-١٢١. معتمداً على مصادر ومراجع.

(٢) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢١ سطور ٢٠-٢٤.

قوانين تتعلق بالحقوق المطلقة للخان[1]. ويبدو أن المجموعة الأخيرة تتضمن الحقوق السياسية الخاصة بالخان فى حكم إمبراطورية المغول[2]. وطبقاً لما ذكرته المصادر المملوكية القريبة من الفترة (فترة عصر المماليك البحرية) من أن الظاهر بيبرس لما تسلطن " أحب أن يسلك فى ملكه بالديار المصرية طريقة جنكيز خان وأموره وغالب أحكامه من أمر الياسا[3]" وهى الأحكام التى وضعها جنكيز خان قبل قيام الدولة المملوكية بحوالى نصف قرن[4]، والتى كانت الأساس الذى قام عليه نظام المماليك العسكرى فى مصر، فالمرجح أن بيبرس قد استمد من الياسا القوانين الخاصة بالضوابط أو التنظيمات العسكرية للجيوش المغولية[5] التى اعتاد عليها المماليك الجدد من القبجاق وغيرهم الذين كانوا نواة الجيش المملوكى الجديد بالإضافة إلى اقتباسه من الياسا القوانين الخاصة بالحقوق المطلقة للخان أى ما

---

(1) النص كما ذكره د. سعد الغامدى: الياسا، مجلة آداب الإسكندرية، مجلد٣٧ ص٨٢. ويلاحظ أن الياسا شملت أيضاً قوانين تنظم الحياة العائلية فى المجتمع المغولى، وفيها أصبحت المرأة المغولية تتمتع باستقلال واحترام عظيمين. وكانت المرأة المغولية أيضاً ترافق الجيش فى حملاته، وتهتم بشئون الرجال المحاربين واحتياجاتهم. شبولر: العالم الإسلامي، ص٢٨.

(2) يلاحظ أن أحكام الياسا ظلت موضع عناية الأقوام التركية حتى بعد أن انهارت دولة الإيلخانيين فى إيران، فقد سار عليها التيموريون وكانوا يتبعون تعاليمها فى إدارة دفة السياسة وشئون الحكم، وفى الولائم والحفلات. راجع ابن عربشاه: عجائب المقدور فى نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصى، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص٦٥؛ أيضاً د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٤٥-٢٤٦. معتمداً على رواية ابن عربشاه.

(3) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢١؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٢٦٨-٢٦٩.

(4) وضعت ما بين سنوات ٦٠٣-٦١٥هـ. راجع د. الغامدى: الياسا، مجلة كلية آداب الإسكندرية، مجلد٣٧ ص٨٢. معتمداً على رأى رايازانوفسكى.

(5) للاستزادة عن الياسا والتنظيم العسكرى عند المغول. راجع د. سعد الغامدى: الياسا، مجلة آداب الإسكندرية، مجلد٣٧ ص١١٥-١٢٠. معتمداً على كتاب يوحنا الكربينى John Plano Carpini المعروف باسم History of Mongol. ولم يتيسر لنا التوصل إلى هذا المصدر.

يخص النظام والبناء السياسى للدولة أو سلطات حاكم الدولة ليطبقها على دولة المماليك فى مصر والتى اعتلى هو السلطة فيها والتى سار على نمطها معظم سلاطين المملاليك فى عصرهم الأول، أو سلاطين المماليك الجراكسة فى عصرهم الثانى، وهو الأمر الذى سنتحدث عنه بالتفصيل عند التعرض للمؤثرات السياسية المغولية على الهيكل أو البناء السياسى لدولة المماليك البحرية فى مصر.

ويلاحظ أن بيبرس الأول فى اقتباسه أو أخذه لقوانين الياسا الخاصة بالتنظيم العسكرى والسياسى للدولة المملوكية الناشئة والتى يعبر معظمها عن القوة والقسوة، وهى أمور كان بيبرس بأشد الحاجة إليها فى المراحل الأولى لتأسيس الدولة المملوكية سياسياً وعسكرياً على أسس راسخة قوية، كان حريصاً على ألا يتعدى حدوده فى استقاء أو الأخذ بأية قوانين أخرى من الياسا سواء تلك التى تخص قوانين العقوبات الجنائية (أو الياسا الجنائية) أو الأجزاء الخاصة بالأمور الدينية للمغول أو ما يتعلق بالآداب العامة أو العادات والتقاليد المغولية الوثنية المنتشرة فى المجتمع المغولى – وإن كان مغول القبجاق وغيرهم من العناصر التى نزحت إلى مصر أو جلبت إليها قد حملت معها هذه العادات والتقاليد؛ لإدراكه التام، وهو نفسه الذى ربى فى بلاد القبجاق على بنود أو مبادئ هذه الياسا قبل أن يباع ثم يجلب إلى مصر، مخالفتها تماماً للشريعة الإسلامية التى تحترم حقوق الفرد وتمنع الطغيان والاستبداد، وهى السمات التى نراها بارزة فى شريعة جنكيز خان[1].

---

(1) الحقيقة أن الكثير من عادات المغول وطباعهم كانت تثير الاشمئزاز وتثير فى نفوس المسلمين فى مصر والشام النفور والكراهية لمنافاتها لتعاليم دينهم. للاستزادة عن هذه المبادئ راجع المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢٠-٢٢١؛ أيضاً د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٤٤-٢٤٥؛ د. سعد الغامدى: الياسا، مجلة آداب الإسكندرية، مجلد٣٧ ص١٠٠-١١٥. معتمداً على مصادر فارسية وأوربية.

ففيما يتعلق بالتنظيمات العسكرية التى أخذها بيبرس وتنبئ عن تأثير مغولى على الجيش المملوكى، فإنه نظم الجيش المملوكى بنفس نمط الجيش المغولى إلى حد كبير، وما اعتاده مغول القبجاق وغيرهم فى مواطنهم، وذلك على أساس النظام العشرى بتقسيمه الجيش المملوكى إلى فرق مختلفة وذلك إلى عشرات وعلى راسهم أمراء عرفوا بأمراء العشراوات(١) وإلى مئات ويرأسهم أمراء عرفوا بأمراء المئين مقدموا الألوف وعدة كل منهم مائة فارس(٢)، وإلى ألوف ويرأسهم مقدموا الألوف(٣) وإلى عشرات الألوف وذلك فى شكل تنظيم دقيق للغاية، على غرار جهاز الجيش المغولى الذى كان هو أيضاً منظم تنظيماً دقيقاً على أيدى جنكيز خان قبل قيام دولة المماليك، وذلك إلى فرق تتكون من عشرات ومئات وألوف وعشرات ألوف ويرأس كل فرقة من هذه الفرق قائد ويأتمر الجميع بأمر جنكيز خان ومن تلاه من أبناءه(٤). فكان على رأس العشرات قادة يسمون العرفاء ويعين على عشرة عرفاء واحداً من بينهم كقائد أعلى على مائة (أى على عشرة عشرات) ثم يتم اختيار واحد من بين الرؤساء العشرة لفصائل المئات ليكون قائداً لهم، وبذلك يصبح قائداً لألف رجل، ثم ينصب رجل واحد من بين مجموع رؤساء الألوف العشرة ليكون قائداً عاماً (أى نويان أو نوين بالمغولية)(٥)، مما يؤكد مدى التأثير المغولى العسكرى

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ص١٥.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص١٤.

(٣) القلقشندى: المصدر السابق، ج٤ ص١٤.

(٤) هكذا أكد المقريزى فى الخطط، ج٢ ص٢٢١.

(٥) د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٥٨؛ د. سعد الغامدى: الياسا، مجلة آداب الإسكندرية، مجلد٣٧ ص١١٧. راجع مناقشة وتحليل المستشرق فرنسيس وودمان كليفيز فى تعليقاته وشروحاته على كتاب جريجورى أوف أكانج: تاريخ أمة حملة الأقواس (المغول) حول لقب أو تسمية نويان فى المصادر المغولية Cleaves (F.W.). The Mongolian names and terms in the History of the nation of the Archers by Grigor of Akanc, Harvard university press, 1954,p. 431. هذا-

على الجيش المملوكي الذى كان يرأسه ويقوده السلطان المملوكي نفسه الذى كان هو نفسه مغولى أو مولوداً بأرض القبجاق موطن معظم الطوائف المغولية التى جلبت إلى مصر أواخر العصر الأيوبي وخلال عصر دولة المماليكِ البحرية.

وإذا كانت قرارات جنكيز خان جادة فى الياسا تحدد مسئولية كل فرد وحقوقه وواجباته مع من هو أعلى منه أو أدنى منه، لتنظيم الانضباط فى حركات الجندى وسكناته فإنها أيضاً نظمت علاقاته بغيره فى ميدان المعركة مع زملائه وكيف يتعامل مع عدوه، فإن الظاهر بيبرس وغيره من سلاطين المماليك ساروا على نفس النمط فيما يتعلق بعلاقات الجند مع قادتهم فى الجيش وتحركاتهم فى ميدان المعركة وكيفية التعامل مع عدوهم، وطبقوها بصفة خاصة فى المعارك التى خاضوها مع التتار أو مغول فارس وتمثل ذلك فى معركة أبلستين[١].

وإذا كان الخان المغولى قد وضع كل شئ فى دولته ليخدم سلطانه ويقوى نفوذه فى شكل قرارات، فإنه بالتأكيد جعل الأولوية فى قراراته الواردة فى الياسا تتعلق بالقتال وشئون الجندية فى ميدان المعركة ومنازلة الخصوم، وهى أمور كانت تمثل العمود الفقرى للإمبراطورية المغولية، كلها فى يديه، وكذلك فعل بيبرس ومن جاء بعده من سلاطين المماليك البحرية حيث كانت جميع القرارات العسكرية الخاصة بخوض المعارك المصيرية ضد المغول والصليبيين تتمركز فى أيدى السلطان المملوكي وترتبط بشخصه، لأن أكثر من خمسة وسبعين بالمائة من نشاط

=وقد ورد لقب نوين أو نويان فى المصادر الإسلامية ضمن ألقاب كفال الممالك بالممالك الثانية كنائب السلطنة وأمراء الألوسى والوزير ونحوهم. راجع القلقشندى: صبح الأعشى، ج٦ ص٣٣. ومن أشهر قادة العشرات ألوف المغول هو كتبغانوين ومعناه أمير عشرة آلاف. وكل اسم من أسماء ملوكهم فى آخره نوين معناه: رأس عشرة الاف. راجع أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٧٨ حاشية رقم ٣. وراجع مناقشة فرنسيس كليفيز لمعنى وأصل اللقب
Cleaves, The Mongolian Names. pp. 430,432.

(١) أبو المحاسن. النجوم، ج٧ ص١٦٨.

المماليك كان للقتال وخوض المعارك، واحدة تلو الأخرى، وبشكل متواصل ضد الأخطار المغولية والصليبية، بالرغم من أن السلطان بيبرس كان أحياناً يجمع الأمراء ويشاورهم فى الخطط العسكرية أثناء معاركهم مع المغول بآسيا الصغرى والصليبيين في بلاد الشام[1].

حتى الرتب والوظائف والألقاب العسكرية التى استحدثها بيبرس الأول مع وفود هذه العناصر من بنى جنسه فى الجيش أو تلك التى لها صلة بالجيش والتنظيم العسكرى المملوكى كانت مشابهة إلى حد كبير لتلك التى كانت موجودة بالجيوش المغولية أو تلك التى كانت لها صلة إلى حد ما بالتنظيم العسكرى المغولى على النحو الذى ألفه المغول أو الأتراك الذين ولدوا ببلاد القبجاق وعلى رأسهم سلاطين المماليك البحرية أنفسهم منذ عهد قطز إلى نهاية سلطنة المماليك البحرية، على النحو الذى أكدته المصادر المملوكية بقولها " ورتب (أى بيبرس) فى سلطنته أشياء كثيرة، لم تكن قبله بديار مصر: مثل ضرب البوقات، وتجديد الوظائف[2]". وفى موضع آخر يذكر صاحب النجوم الزاهرة : والملك الظاهر هذا هو الذى ابتدأ فى دولته بأرباب الوظائف من الأمراء والأجناد، وإن كان بعضها قبلة لم تكن على هذه الصيغة أبداً..."، فجاء الملك الظاهر هو وجماعة كثيرة من الأمراء والجند (يقصد المغول) ورتبهم فى وظائف..."[3]. وهى أمور فرضها وجود هذه العناصر المغولية أو التركية لتكون العمود الفقرى للجيش المملوكى، ولعل من أمثلة هذه الوظائف والألقاب العسكرية التى تؤكد الأثر المغولى على النظام العسكرى الذى أنشأه بيبرس: أمير سلاح، ورأس نوبة النوب، أمير مجلس، أمير آخور، أمير جاندار، وأمير علم، والسراخور، وكذلك الألقاب والوظائف التى يغلب عليها الطابع

---

[1] راجع أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٧٤ حوادث سنة ٦٥٨هـ.

[2] أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٢٦٩.

[3] أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٣.

غير العسكرى وأن كلها لها علاقة وطيدة بالجيش المملوكى وتنظيماته مثل السقاه والسلاحدارية والجمدارية[1]. ويؤكد هذا التأثير المغولى أنه خلال حكم الظاهر بيبرس الذى امتد ما يقرب من عشرين عاماً دخل إلى دولة المماليك مجموعة ثلاثة آلاف فارس منح بعضهم رتبة أمير طبلخاناه وآخرين أمير عشرة وأمير عشرين، ومنهم من جعله من السقاه، والآخرون فى وظيفة سلحدارية وجمدارية[2]، واندمج البعض الآخر فى قوات الأمراء[3]، أى بما اعتادوا عليهم فى أوطانهم فى بلاد القبجاق.

وكل وظيفة من هذه الوظائف كان يعهد بها إلى شخص واحد أو عدة أشخاص على غرار النمط الذى كان معمولاً به عند المغول فى أيام جنكيز خان وبعد وفاته. فبالنسبة لوظيفة "أمير سلاح" فكان لقب يطلق على من يتولى أمر سلاح السلطان المملوكى أو الأمير فى المجامع الجامعة، ويناول السلطان آلة الحرب والسلاح يوم القتال[4]، وصاحبها هو المقدم على السلاحدارية من المماليك السلطانية والمتحدث فى السلاح خاناه السلطانية، وما يستعمل لها ويقدم إليها، ولا يكون إلا واحد من الأمراء المقدمين[5]. وكانت هذه الوظيفة موجودة لدى المغول فى شكل

---

(1) أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٧٤.

(2) صاحب هذه الوظيفة، وهى من الوظائف المستحدثة التى وضعها بيبرس، يسمى جمدار: وهو الذى يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وأصله جاما فحذفت الألف بعد الجيم وبعد النون استثقالاً وقيل جمدار. وهو فى الأصل مركب من لفظين فارسيين أحدهما جاما ومعناه الثوب والثانى: دار ومعناه ممسك فيكون المعنى ممسك الثوب. القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥ ص٤٥٩؛ راجع معناه أيضاً فى أبى المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٥.

(3) أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٩٠.

(4) أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٤.

(5) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص١٨؛ ج٥ ص٤٥٦-٤٦٢؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٤.

عدة أشخاص كانوا يحملون السهام والأقواس وغيرها من الأسلحة التى تقدم للجند والقادة المغول وخاناتهم أثناء المعارك، وفيما بعد أسندت إلى شخص واحد يطلق عليه اسم قورجى[١]، مع الوظيفة الأخرى التى كانت تسند إلى من يتولى إعداد العجلات الحربية ووسائل النقل فى الجيش المغولى. أما وظيفة أمير آخور فعلى الرغم من أن تسمية صاحبها ليست مغولية أو تركية وإنما هى لفظة مركبة أحدهما عربى ومعناه الأمير، والثانى فارسى وهو آخور ومعناه المعلف، فيكون معناه الأمير المعلف أى المتولى أمر الإسطبلات بما فيها من خيل وإبل وإطعامها، ويكون فى الغالب مقدم ألف[٢]، ويسمى صاحبها أيضاً بأمير المزود الذى يأكل فيها الفرس[٣]، ويشبه هذه الوظيفة أيضاً تلك المعروفة باسم السراخور، وهو المسئول عن علف الدواب من الخيل وغيرها، وهو مركب من لفظتين فارسيين أحدهما سرا ومعناه الكبير، والثانى خور ومعناه العلف، ويكون المعنى كبير العلف والمراد به كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب. والعامة فى مصر يقولون سراخورى، ومتشدقوا الكتاب يبدلون الراء لاماً فيقولون سلاخورى والأصح سراخورى[٤]. وهذه الوظائف مما استحدثها السلطان الظاهر بيبرس مع مجئ المغول الوافدية[٥]، ومأخوذة مما عرف عند المغول الذى كانت توجد لديهم نفس هذه الوظائف فى

---

[١] د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٥٥.

[٢] د. الصياد: المغول، ص٢٥٦.

[٣] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤١٨؛ ج٥ ص١٨-١٩. ويلاحظ أن هذا اللقب كان موجوداً من قبل لدى الخوارزمية، فورد ذكره فى نص للنويرى يتحدث عن الصراع الخوارزمى المغولى فى إقليم بخارى. النويرى: نهاية الأرب، ج٢٧ ص٣٠٨. ولكن النص لم يوضح إذا كان هذا اللقب لدى الخوارزمية يعنى نفس المعنى لدى المغول أو المماليك فيما بعد أم لا.

[٤] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥ ص٤٦٠. وفى النجوم الزاهرة: سلاخورى. أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٥.

[٥] أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٥.

المغولى حيث كانت تسند إلى أشخاص مهمتهم الإشراف على الخيول والمواشى الخاصة بالجيش ومراعيها وعلفها[1] وكان يطلق على الشخص المكلف بهذا العمل اسم "اخته جى" باللغة المغولية وكان بيلكوتاى أحد أخوة جنكيز خان يتولى هذه الوظيفة[2]. ويلاحظ أن وظيفة أمير آخور بصفة خاصة كانت وظيفة عظيمة لدى المماليك، مثلما كانت عظيمة لدى المغول، وكان الذين يلونها لديهم يطلق عليه أيضاً اسم "آق طشى" على حد تعبير صاحب النجوم الزاهرة[3].

أما وظيفة رأس نوبه والتى كانت من الوظائف العظيمة عند التتار، ويسمون الذى يليها يسوول (بتضخيم السين) على حد تعبير أبو المحاسن[4]. ويبدو أن هذه الوظيفة بالفعل، كما يؤكد صاحب النجوم الزاهرة فى نصه الفريد المذكور آنفاً، من أجل وأكبر وظائف المغول وربما يقصد بها جماعة من الحرس الخاص بجنكيز خان وكان يطلق عليهم مسمى آخر عند المغول هو كشيكجى وهى كلمة مغولية معناها النوبه[5]. وكان عدد هؤلاء الحراس يبلغون أحياناً عشرة آلاف رجل ممن عرفوا بالحذر واليقظة وشدة البأس. وكان يوكل إليهم النظر فى أدق التفاصيل الخاصة بمعسكر الخان. وكانوا يؤلفون فى الإمبراطورية المغولية طبقة أرستقراطية ممتازة[6]. وهذه الوظيفة أخذها بيبرس من المغول كما يذكر أبو المحاسن، وأنه هو " أول من أحدثها فى مملكة مصر[7] . ضمن وظائف أرباب السيوف وإن كان متوليها له الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم وتنفيذ أمر السلطان

---

[1] د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٥٦.

[2] د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٥٦.

[3] أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٥.

[4] أبو المحاسن: النجوم ص ١٨٥.

[5] د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٥٦.

[6] د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٥٦.

[7] أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٥.

فيهم، وجرت العادة أن يتولاها أربعة أمراء: واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه[1]. وقد عرف صاحب هذه الوظيفة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فيما بعد، باسم رأس نوبة الأمراء[2].

وحتى وظيفة الشراب خاناه التى كانت معروفة عند المغول وكانت تسند إلى أشخاص يقومون بالإشراف على الطعام والشراب الخاص بالخان وبالجيش المغولى[3]، فقد أخذها بيبرس الأول أيضاً ضمن وظائف أرباب السيوف وعرف صاحبها باسم شد الشراب خاناه كأحد الوظائف المستحدثة فى التنظيم الادارى للدولة المملوكية وكان صاحبها يشرف على الشراب خاناه السلطانية وما عمل إليها من السكر والمشرف والفواكه وغير ذلك، وتارة يكون صاحبها مقدماً وتارة يكون طبلخاناه[4]. وغيرها من الوظائف التى يضيق المقام عن حصرها خاصة وأن كتب الموسوعات الإسلامية مثل صبح الأعشى، النجوم الزاهرة قد حفلت بأسماء هذه الوظائف والألقاب التى تبين مدى التأثير المغولى فيها[5]. هذا وقد أكدت غالبية المصادر المملوكية أن غالبية هذه الوظائف أو الرتب العسكرية قد استمرت ليس

---

(1) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص١٨؛ ج٥ ص٤٥٥. ويجمع صاحب هذه الوظيفة على رؤوس نوب. والمراد بالرأس هنا الأعلى أخذاً من رأس الإنسان لأنه أعلاه والنوبه واحدة النوب وهى المرة بعد الأخرى، والعامة تقول لأعلاهم فى خدمة السلطان رأس نوبة النوب. وهو خطأ لأن المقصود علو صاحب النوبة لا النوبة نفسها، والصواب فيه أن يقال" رأس رؤوس النوب " أى أعلاهم. القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥ ص٤٥٥.

(2) أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٤.

(3) د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٥٥.

(4) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٢١.

(5) القلقشندى: صبح الأعشى،ج٤ ص١٦-٢٢؛ ج٥ ص٤٥٥-٤٦٣؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٤-١٨٦.

فقط فى فترة دولة المماليك البحرية بل وفى عصر دولة المماليك الجراكسة إلى نهاية الدولة المملوكية نفسها فى مصر وبلاد الشام.

إن الألقاب التى اتخذها سلاطين المماليك وأمرائهم وكان معظمهم من المغول القفجاق أو الأتراك الذين اختلطوا بالمغول فى أرض القبجاق، كانت ألقاب مغولية أو تركية لها دلالات عسكرية وسياسية توضح مدى التأثير المغولى على الدولة المملوكية وتؤكده مدى تمسك هؤلاء السلاطين والأمراء بأصولهم المغولية أو التركية القبجاقية واعتزازهم بها. وهذه الألقاب أو الأسماء عبارة عن أسماء لأشياء أو حيوانات أو صفات فى اللغات المغولية أو التركية مثل قطز وهو لفظ مغولى[1]، وبيبرس أو بكبرس معناها باللغة التركية أمير فهد[2]. ويذكر بلوشيه أن لفظة بيبرس أو بكبرس معناها الأسد الأبيض[3]، وطوغان وهو لقب مغولى أو تركى معناه الصقر[4]، وبكتمر ومعناه الأمير الجديد[5]، وسلار ومعناه المهاجم[6]، وأوزبك معناه

(1) أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٧٢.

(2) أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٩٤.

(3) راجع مقدمة د. عبد الحميد حمدان لكتاب التحفة الملوكية، ص٦ حاشية ٣.

(4) المقريزى: السلوك، ج١ ق٢ ص٣٢٠ . وقد أطلق هذا اللقب على العديد من الأمراء فى العصرين المملوكى الأول والثانى من أصل مغولى أو تركى أو القادمين من بلاد القبجاق. راجع مثلاً أبو المحاسن: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق د. نبيل عبد العزيز، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩م، ج٣ ص٦٣،٨٣،٣١٨،٤٩٠؛ الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، تحقيق د. حسن حبشى، ط. الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٧م ص٨٥،٣٣٢،٣٤٨،٣٧١،٣٨٣؛ العينى: السيف المهند، ص٢٢٥،٣١٧.

(5) مثل الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار أمير جاندار فى سلطنة السلطان المغولى الأصل كتبغا. راجع بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية، ص٩٩،١٣٦،٢٢٧.

(6) راجع .Lane-poole,Sarcenic Art, p. 4 وقد حفلت المصادر المملوكية بأسماء أمراء من أصل مغولى أو تركى حملوا هذا اللقب. راجع مثلاً أبو المحاسن: المنهل الصافى، ج٣ ص١٢٩،٢١٩؛ الصيرفى: نزهة النفوس، ص١٧،٤٧،٥٢،٥٦،٦٤،٤٣٣،٤٤٥.

النبيل[1]. ومثل لقب بهادر وهو لقب مغولي معناه مبارز وشجاع[2]، وكان لقباً لعديد من أمراء المماليك ذوى أصول مغولية أو تركية[3]، ومن هؤلاء الامراء من ظل متمسكاً بألقاب تعبر عن اعتزازه بموطنه الاصلى أو مسقط رأسه فى بلاد القفجاق مثل الأمير سيف الدين قفجاق أحد الأمراء الكبار فى الجيش المملوكى فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، ثم سلطنه زين الدين كتبغا المنصورى الأويراتى المغولى الأصل، وفى سلطنة حسام الدين لاجين المنصورى، وقد لعب دوراً كبيراً فى خلع زين الدين كتبغا من عرش السلطنة المملوكية وتوليه المنصور لاجين[4] وكافأه لاجين بأن جعله فى نيابة السلطنة بدمشق[5].

إن التأثير المغولى على النظم العسكرية التى أنشأها بيبرس وصل إلى حد إطلاق مسميات مغولية أو تركية على معسكرات الجيش المملوكى التى كانت تنصب فى ميادين المعارك أثناء صراع المماليك مع الصليبيين والمغول فى بلاد الشام وآسيا الصغرى، فعلى سبيل المثال كان يطلق اسم الوطاقات وهو لفظ معرب،

---

[1] Lane-poole, Sarcenic Art, p. 4. وكان هذا الاسم يلقب به أحد خانات قبيلة القبجاق الذهبية ويسمى أوزبك خان _٧١٣-٧٤٢هـ/١٣١٣-١٣٤١م). راجع ابن الفرات: تاريخه، ج٩ ص٣٨١. أيضاً راجع شجرة نسب آل جنكيز خان (خانات الأوردو الذهبية) فى بارتولد: تركستان، ص٧١٩.

[2] د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٥٧.

[3] راجع مثلاً بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية، ص١٤٣-١٤٤،١٤٩،١٦٤،٢٢٣؛ زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٩٣؛ أبو المحاسن: المنهل الصافى، ج٣ ص٤٢٨-٤٣١،٤٣٤-٤٣٥.

[4] يذكر العينى أن أصل المنصور لاجين من الجركس، وليست قبيلته بمشهورة وقيل أنه من التتر. راجع العينى: السيف المهند، ص٤٧.

[5] بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية، ص١٤٨-١٤٩؛ زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٩٥،٣٠٠،٣٤١،٣١٧؛ ابن سباط: تاريخه، ج١ ص٥١٢. وراجع فرمان محمود غازان خان المغولى (داستان غازان خان) بتولية سيف الدين قبجق نيابة الشام. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٣٢٤-٣٢٥؛ مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٦٦-٦٨.

وأصله بالتركية أو المغولية أوتاق أو أوطلق أو أوتاغ ويعنى الخيمة أو مجموعة الخيام أو المعسكرات التى كان ينزل بها الجيش المملوكي وظلت هذه الكلمة تستعمل حتى نهاية العصر المملوكى فى مصر والشام ونجد أول ذكر لها فى العصر المملوكى فى أوائل سلطنة الأشرف خليل بن المنصور قلاوون عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م[١]، كما نجد ذكر لها أيضاً بعد مقتل السلطان الأشرف خليل عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م[٢]، كما ذكرت فى عصر سلطنة المظفر حاجى بن الناصر محمد ابن قلاوون، وسلطنة الأشرف جانبلاط بن عبد الله فى عصر دولة المماليك الجراكسة[٣]. ويقال أنها كانت عبارة عن خيمة كبيرة تعد للعظماء كما كان ينزل بها السلطان المملوكى فى معاركه[٤]. كما كان يطلق لفظ "قشلاق" على الأماكن التى كانت تقام بها المعسكرات المملوكية وهى لفظة مغولية استعملها المغول، وأطلقوها على الأماكن التى تقام بها خيام معسكرات جيوشهم فى فصل الشتاء[٥]. ومما يثير الدهشة أن هذه اللفظة المغولية (قشلاق) ظلت تستخدم لتطلق على ثكنات أو معسكرات الجيش المصرى حتى العصر الحديث.

وفيما يتعلق بالتأثير المغولى أو التتارى على الملابس العسكرية للجيش المملوكى وكذلك أسلحة هذا الجيش فقد وقفنا على نصوص بين دفتى المصادر المملوكية تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك مدى التأثير المغولى على ملابس الجيش المملوكى سواء كانت ملابس القادة أو الأمراء أو الجند، وكيف أن السلطان

---

(١) بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية، ص١٢٥ سطر ٣.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٧٦ سطر ١١.

(٣) ابن سباط: تاريخه، ج٢ ص٩١٥.

(٤) راجع أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، تحقيق فهيم شلتوت، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ج١٣ ص٧٨-١٧٩ ج١٢ حوادث سنة ٨٠٧هـ حاشية ٣.

(٥) د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٤٧.

المنصور قلاوون عندما قام بإصلاحات أو تعديلات التى طور بها أزياء الأمراء والعساكر بالجيش المملوكى جعل الزى التترى أو المغولى زياً عاماً ضمن الأزياء أو الملابس التى يرتديها جند وقادة الجيش المملوكى[1]، وكذلك الأسلحة التى كان يستعملها الجيش المملوكى فى حروبه الخارجية ضد كل من المغول والصليبيين والتى ظهر بها أيضاً الطابع التترى.

إن المقريزى فى نص فريد له يشير إلى مدى اختلاف زى الأمراء والعسكر فى الدولة المملوكية التركية منذ عهد سيف الدين قطز حتى قبيل عهد المنصور قلاوون[2]، ويبدو أنها كانت خليطاً متنافراً من أزياء أو ملابس متنوعة بسبب تعدد الطوائف التى كان يتكون منها الجيش المملوكى فى خلال هذه الفترة، وإن كان يرجح أن الطابع العام لهذه الملابس كان يغلب عليه الزى التترى أو المغولى وأيضاً الأسلحة التترية بسبب كثرة طوائف أو عناصر المغول القبجاق الذين وفدوا إلى مصر أو جلبوا إليها عن طريق الشراء أو الأسر منذ عهد بيبرس الأول حتى اعتلاء المنصور قلاوون دست الحكم، وذلك استناداً لما ذكرته المصادر المملوكية[3]، والذى أشرنا إليه آنفاً فى مواضع عديدة من هذه الدراسة. وتأكيداً لوجهة النظر تلك يصف المقريزى فى نص له ملابس السلطان والأمراء والقادة وسائر العسكر بالجيش المملوكى خلال هذه الفترة (أى ما بين قيام دولة المماليك حتى عهد المنصور قلاوون)" وكان من الرسم فى الدولة التركية (أى المملوكية) أن

---

(1) راجع ذلك النص الفريد فى كل من القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص١٤٠؛ المقريزى. الخطط، ج٢ ص٢١٧.

(2) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢١٦-٢١٧. يقصد عدم وجود زى ثابت أو مميز أو موحد للجيش المملوكى.

(3) مثلاً بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٠١، ٢٩١-٢٩٢، التحفة الملوكية، ص١٤٦؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧، ص١٩؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢١٤.

السلطان والأمراء والعساكر إنم يلبسون على رؤوسهم كلوتة صفراء (أى قلانس) مضربة تضريبا عريضا ولها كلاليب بغير عمامة فوقها وتكون شعورهم مضفورة مدلاة بدبوقه[1]، وهى فى كيس حرير إما أحمر أو أصفر وأوساطهم مشدودة ببنود من قطن بعلبكى مصبوغ عوضاً عن الحوائص وعليهم أقبية إما بيض أو مشجرة أحمر وأزرق (يلاحظ هنا التأثير المغولى فيما يعرف بالأقبية المغولية أو التترية) وهى ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الفرنج اليوم[2]، وأخفافهم من جلد بلغارى أسود وفى أرجلهم من فوق الخف سقمان وهو خف ثان. ومن فوق القباء كمران بحلق وأبزيم وصوالق بلغارى كبار يسع الواحد منها أكثر من نصف ويبة غلة مغروز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع. فلم يزل هذا زيهم حتى استولوا بديار مصر على الملك من سنة ٦٤٨هـ إلى أن قام فى المملكة الملك المنصور قلاوون فغير هذا الزى بأحسن منه[3]".

على أن اعتلاء السلطان المنصور قلاوون السلطنة المملوكية كان إيذاناً بتغييرات أو إصلاحات فى زى الأمراء وقادة وعسكر الجيش ليكون زياً موحداً مميزاً، وارتبطت هذه الإصلاحات أو التغييرات بالزى العسكرى المملوكى مع كثرة طوائف الجيش المملوكى من الجراكسة والمغول أو الأتراك القبجاق. ورغم حرص المنصور قلاوون على زيادة أعداد الجراكسة بالجيش، وكان موطنهم بالمرتفعات

---

(1) سوف نشير فى الجزء الخاص بالتأثير المغولى على المماليك من الناحية الاجتماعية والخاصة بطريقة تصفيف الشعر عند السلاطين والأمراء فى موضعه المناسب من هذه الدراسة.

(2) يذكر ماير أن كلمة الفرنجى أو الفرنج الذى تضمنه نص المقريزى تعنى بوضوح البندقية أو بندقى وذلك راجع إلى أن البنادقة كانوا معروفين تماما فى أنحاء السلطنة المملوكية أكثرمن أى شعب أخر. ماير: الملابس المملوكية، ص٤١. على أن هذا الرأى من قبل ماير لا يستند على أدلة أو أسانيد منطقية وثائقية قوية.

(3) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٩٨.

الجنوبية من بلاد قبجاق بين البحر الأسود وبحر قزوين[1]، إمعاناً في إبعاد العناصر الشمالية من القبجاق التتاريين، إلا أن ذلك لم يمنع من أن يظل العنصر المغولي أو التتري التركي أغلبية في الجيش المملوكي[2]، مما دفعه إلى أن يجعل الزي أو اللباس التتري لباساً عاماً ومميزاً وموحداً ضمن الملابس التي يرتديها القادة والعسكر على غرار ما كانوا يرتدونه أو اعتادوا عليه في بلادهم بأراضي القبجاق، "وصار زيهم (أو ثياب أبدانهم) إذا دخلوا الخدمة بالأقبية التترية والتكلاوات[3]، ومن فوقها القباء الإسلامي، ثم يشد عليه المنطقة والسيف من جهة اليسار، والصولق[4] والكزلك من جهة اليمين[5]". ويتميز الأمراء والمقدمون وأعيان الجند قادة الجيش المملوكي بلبس أقبية إسلامية قصيرة الأكمام فوق ذلك تكون أكمامها أقصر من القباء (التتري) التحتاني بلا تفاوت كبير في قصر الكم والطول[6]".

ويصف دوزي في قاموسه للملابس أن الأقبية أو المعاطف التترية ذات الأصل الأجنبي بأنها كانت عبارة عن كمران تلف الصدر من اليسار إلى اليمين

---

[1] د. السيد الباز العريني: المماليك، ص٦٣.

[2]يذكر المقريزي أن عدد المماليك السلطانية في أيام المنصور قلاوون بلغ ستة آلاف وسبعمائة، وكان معظمهم بطبيعة الحال من مغول القبجاق. المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢١٤.

[3]يسميها المقريزي: الكلاوات. المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢١٧ س٢. انظر مناقشة ماير لطريقة قراءة هذه الكلمة وكتابتها. ماير: الملابس المملوكية، ص٤٠ ح٢. ويلاحظ أن الأقبية التترية طبقاً لنص القلقشندي والمقريزي كانت تمثل الملابس أو الثياب التحتانية على البدن ويذكر ماير أنها كانت تلبس فوق القميص أو اللباس. ماير: الملابس، ص٣٩.

[4] كان الصولق الذي يرتديه كل أفراد الجيش المملوكي: قادة وجنداً فوق القباء مصنوعاً من الجلد البلغاري الأسود، كبير الحجم. ماير: الملابس المملوكية، ص٥٠-٥١. معتمداً على مصادر.

[5]القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٠ ؛ المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢١٧. وهناك تشابه كبير بين نص القلقشندي والمقريزي. أيضا ماير: الملابس المملوكية، ص٤٠.

[6] المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢١٧.

(وكان هذا بعكس الأتراك الذين كانوا يفضلون الكمر الذى يلف الصدر من اليمين إلى اليسار) وكان القباء التترى يصنع من الصوف والأطلس والحرير أو القطن البعلبكى[1]. وعلى الرغم من أن دوزى وماير لم يوضحا ما يقصدانه بتعبير أن المعاطف أو الأقبية التترية من أصل أجنبى وذكرا وصفاً لها يخالف طريقة صنعتها لدى المغول أو الأتراك، إلا أن إطلاق المصادر المملوكية على هذه الأقبية أو المعاطف أسم "الأقبية التترية" إنما يشير إلى أنها ذات أصل تترى أو مغولى حملها معهم مغول القبجاق وغيرهم من العناصر المغولية الوافدية إلى مصر منذ عهد بيبرس الأول. ولدينا نص هام ذكره صاحب كتاب الروض الزاهر، يؤكد فيه بالتلميح دون التصريح أن الأقبية أو المعاطف التترية كانت ضمن أزياء الجيش المملوكى منذ عهد الظاهر بيبرس الأول وذلك ضمن حوادث سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م[2]. بل يؤكد النص أنه كان زياً مميزاً للجند المماليك فى مصر وبلاد الشام، وهذا يشير بوضوح إلى أن بيبرس أول من أدخل الأقبية أو المعاطف التترية ضمن ملابس الجيش المملوكى سابقاً بذلك المنصور قلاوون. ويؤكد هذا النص ما ذكره المقريزى برواية قريبة لذلك، فى السلوك وذلك بالتلميح دون التصريح[3]. وهذا يؤكد مدى التأثير التترى على الزى المملوكى. ويؤكد وجهة نظرنا التى تعارض وتوضح فى آن واحد ما ذكره كل من دوزى، ماير، ذلك النص اللاتينى الذى ذكره يوحنا كاربينى John Plano of Carpini وأورد ماير فقرة منه بحاشية كتابه من أن مسمى هذه الملابس بالأقبية أو المعاطف التترية نسبة إلى

---

(1) Dozy (R.). Dictionnaire detaillé des noms des vétêments chez les Arabes. Amesterdam 1845, pp. 304-305. أيضا ماير: الملابس المملوكية، ص٤٠-٤١.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٩١.

(3) المقريزى: السلوك، ج١ ص٥١١.

التتر أو المغول التى أتوا بها إلى مصر[1]. وكانت العساكر من الأمراء تلبس هذه المعاطف أو الأقبية التترية متنوعة الطراز والأسماء التى يغلب عليها مسميات مغولية أو تركية مثل الكمخا[2] والخطاى والكنجى والمخمل[3]. وفى زمن الشتاء كانت الملابس أو الأقبية الفوقانية تكون ملونة تصنع من الصوف النفيس والحرير الفائق، أما الملابس التحتانية (أى التترية) فكانت تصنع مبطنة بفراء السنجاب الغض، ويلبس أكابر الأمراء المماليك السمور، والوشق والقاقم والفنك على غرار ما كان يرتديه المغول فى بلادهم، وكان معظمها يجلب من جنوب روسيا موطن قبائل المغول القبجاق للذهبية إما عن طريق التجار أو طريق الهدايا المرسلة من خانات قبيلة القفجاق الذهبية[4].

---

(1) ماير: الملابس المملوكية، ص٤٠ حاشية (٦) نص يوحنا الكاربينى.

(2) الكمخا: هى ثياب حريرية. ويذكر ابن بطوطه أثناء زيارته للصين التى كان يحكمها قاآنات من ذرية جنكيز خان أن ثياب الكمخا تلك كانت تصنع فى مدينة بالصين تسمى الزيتون. ابن بطوطه: رحلته، ص٥٤١،٦٣٤.

(3) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢١٧.

(4) من المهم للغاية أن نذكر أن ابن بطوطه قد أشار بصفة خاصة إلى أمراء الصين وتجار بلاد فارس والعراق لارتدائهم فراء السمور، كما يشير أيضاً إلى أنه أثناء رحلته فى آسيا الوسطى وبالتحديد فى مدينة خوارزم التى كانت خاضعة لخانات القبيلة الذهبية أن إحدى الأميرات فى خوارزم أرسلت إليه هدية تتكون من فرو سمور وفرس جيد. ابن بطوطه: رحلته، ص٣٧٧؛ أيضاً ماير: الملابس المملوكية، ص٤٣ والحواشى. ويلاحظ أن السمور كان يصنع من نوع من الأقبية أو المعاطف عرفت بالسلارية كان يرتديها كبار أمراء سلاطين المماليك البحرية بالجيش المملوكى. راجع المقريزى: السلوك، ج١ ص٥٨٤. كما استمرت هذه الأقبية السلارية المصنوعة من فراء السمور تستخدم لدى بعض الأمراء فى عصر دولة المماليك الجراكسة فكان يرتديها أعيان الأمراء مقدمى الألوف بالجيش المملوكى. راجع أبو المحاسن: النجوم، ج١٤ (تحقيق د. جمال محرز، فهيم شلتوت) الهيئة المصرية للكتاب ١٣٩١هـ/١٩٧٢، ص٣٤٠-٣٤١.

والمؤكد فيه أن الأقبية أو المعاطف التترية ظلت كزى مميز للجيش المملوكى، وبعض فرق الحرس الخاص بالسلطان المملوكى خاصة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون حيث يشير المقريزى فى نص فريد له لوجود فرقة من الحرس الخاص به كانت تتكون من أكثر من خمسين من أمراء السلطان الشبان كانت ترتدى دائماً تتريات (أى معاطف تترية) حرير أطلس بطرازات زركش وكلوتات زركش وحوائص ذهب[1]، واستمرت مستخدمة حتى نهاية العصر المملوكى (وبالتحديد فى عصر المماليك الجراكسة) كزى بعض الغلمان أو المماليك الأوجاقية[2] يرتدى فى بعض المناسبات استناداً إلى نص ابن أياس الذى يشير فيه أنه فى شوال من عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م أثناء سلطنة الأشرف قنصوة الغورى "سار الغلمان الأوجاقية فى موكب شعبى صحبه الوزير من القلعة وهم يرتدون المعاطف التترية المصنوعة من الحرير الأصفر[3]".

إن التأثير المغولى أو التترى على أزياء الجيش المملوكى لم يقتصر فقط على المعاطف أو الأقبية التترية بل امتد ليشمل نوع آخر من لباس الرأس كان

---

(١) المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٣ سطور ١-٢.

(٢) الأوجاقية: مفردها أوجاقى. ويذكر القلقشندى أنه كان لقب يطلق على الذى يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة. ويضيف القلقشندى أنه لفظ أعجمى وأنه لا يعرف له معنى آخر غير الذى ذكره. القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥ ص٤٥٤. ويطلق عليهم أبو المحاسن اسم الأوشاقية، وأول ذكر لهم كان فى عهد السلطان سيف الدين قطز. ويبدو أنهم لعبوا دوراً فى انتصار قطز فى عين جالوت. راجع نص أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٨٥.

(٣) ابن إياس. بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ط. بول كاله P. Kahle، محمد مصطفى (استانبول ١٩٣١-١٩٣٦م) ص١١٣؛ أيضاً ماير: الملابس المملوكية، ص٤٢ معتمداً على نص ابن أياس.

خاص بالعسكريين يطلق عليه اسم سراقوج[1] (قلنسوة) والتي كانت ضمن ملابس بركه خان مغول القبيلة الذهبية نفسه[2]، وكان يمثل إلى حد كبير الزى التترى المميز، كما كان يمثل جنباً إلى جنب الأزياء المميزة لعسكر المماليك في مصر والشام فيما بعد منذ عهد السلطان بيبرس الأول نفسه كما يؤكد بذلك صاحب الروض الزاهر في ذكره لحوادث سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م عندما ذكر أن ملك أرمينيا (أثناء الصراع المملوكي الأرميني في عهد بيبرس الأول) أصدر أمره بصنع ألف قباء تترى وألف قلنسوة سراقوج ليرتديها جنوده الأرمن حتى يكونوا في هيئة التتر ليتسنى لهم بذلك دخول بلاد الشام متخفين أو ليوهم المماليك أنهم نجدة من مغول فارس[3]، أو تمر كفرقة تترية متعاونة مع المماليك[4]. ويؤكد استعمال السراقوج التترى في الجيش المملوكي في عصر دولة المماليك البحرية، والذى كان يستعمل على نطاق واسع بين جيوش التتر خاصة لدى تتر أو مغول فارس، في أثناء الصراع المغولي المملوكي، ذلك النص الهام الذى أورده ابن الفرات في حوادث عام ٦٩٢هـ/١٢٩٣م وفيه طلب الأمير عز الدين أيبك الرومي – نائب قلعة المسلمين الأشرفية التي كان اسمها قلعة الروم – من السلطان الأشرف خليل بن

---

[1] يذكر ماير أن السراقوج عبارة عن قلنسوة لها شكل مخروطي طويل بحافة مقلوبة إلى أعلى كالتي نراها في الصورة الفريدة بمخطوط جالن في المكتبة القومية بفيينا، أو ربما في مخطوط الجزرى في مكتبة البودليان بأكسفورد. ماير: الملابس المملوكية، ص٥٦-٥٧ والحواشي.

[2] ماير: الملابس المملوكية، ص٥٦. معتمداً على نص بتاريخ سلاطين المماليك ص٢١٥، نص ابن الفرات ضمن حوادث ٦٦١هـ.

[3] المقريزى: السلوك، ج١ ص٥١١؛ أيضاً ماير: الملابس المملوكية، ص٤٢، ٥٦. معتمداً على مصادر.

[4] هذا هو تفسير ماير لنص تاريخ سلاطين المماليك. ماير: الملابس المملوكية، ص٥٦ حاشية (٢).

المنصور قلاوون أن يرسل إليه ثلاثين سراقوجاً (طاقية أو غطاء الرأس) المميز للجند المغول والتى كان يرتديها عسكر المماليك بقصد جعل جواسيسه غير متميزين عن التتر ويدخلوا بلادهم دون أن يعرفوا[1]. ويؤكد استعمال السراقوج التترى والمعاطف التترية فى الجيش المملوكي حتى أواخر عهد المماليك الجراكسة أنفسهم ما حدث عقب المناداة بأحمد بن أينال الأجرود سلطاناً عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م[2] "أن ارتدى الأمراء القلانس السراقوج (الكلوتة) والمعاطف التترية البيضاء، طبقاً لما جرت عليه العادة"[3]. ويذكر ل.ا.ماير L.A.Mayer أن السراقوج (غطاء الرأس) التترى الطابع كان قد اختفى من عالم الموضة فى خلال عصر المماليك البحرية[4]، ثم بعد مضى قرن من الزمان، عاد إلى الظهور فى عصر المماليك الجراكسة كلباس رأس للسيدات[5].

ويبدو أن التأثير المغولى لم يقتصر فقط على ملابس قادة وجند الجيش المملوكى، بل امتد ليشمل أيضاً الدروع التى كان يرتديها محاربو المماليك أو ما يعرف بملابس المماليك المعدنية – إذا ما صح هذا التعبير – وأيضاً فى أنواع الأسلحة التى كانت تستخدم فى ساحات الوغى من ناحية أو حتى أثناء الصراع داخل مصر بين الأمراء المماليك بعضهم البعض من ناحية أخرى.

---

[1] ابن الفرات: تاريخه، مجلد٨ ص١٥٤-١٥٥.

[2] راجع ابن سباط: تاريخه، ج٢ ص٨٠٣.

[3] ماير: الملابس المملوكية، ص٤٢. معتمداً على نص لأبى المحاسن. ويبدو أن السراقوج هذا لم يكن قاصراً ارتدائه فقط على جند الجيش المملوكي بل كان يرتدى أيضاً من قبل أشخاص عاديين فى مصر لدى طبقات عديدة من الشعب فكان بمثابة ما يمكن أن يطلق عليه موضة فى العصر الحديث.

[4] يستثنى من ذلك جند وقادة الجيش المملوكي التى تؤكد النصوص استخدامهم له إلى نهاية عصر المماليك الجراكسة كما ذكرنا آنفاً.

[5] ماير: الملابس المملوكية، ص٥٧.

ففيما يتعلق بالدروع المملوكية، فإن نصوص المصادر التي تعرضت لهذا الموضوع شحيحة للغاية بل تكاد لا تذكر، خاصة فيما يتعلق بمدى التأثير التترى عليها، وإن كانت المعلومات القليلة التي تيسرت لنا توضح أن ارتداء الدروع في المجتمع المملوكي كان امتيازاً خاصاً بطبقة الأرستقراطية العسكرية (أى طبقة أمراء المماليك الكبار فقط وكان منهم أمراء من مغول القبجاق) وكانت هذه الدروع مصنوعة إما من المعدن الخالص أو دروع من الجلد مكسوة بصفائح كبيرة من المعدن. وعلى الرغم من أن كتب الأدب العربية والموسوعات التاريخية الخاصة بالعصور الوسطى أو العصر المملوكي بصفة خاصة لم تورد ذكر أى نوع من أنواع هذه الدروع واستخدام المماليك لها والتأثير المغولي أو التترى عليها، خاصة فيما يتعلق بالدروع المصنوعة من المعدن الخالص، أو أنها كانت تشكل جزءاً من عدة الحرب عند المماليك، إلا أن المؤرخ الألماني ماير يذكر في رأى مستنير له أنه من المؤكد فيه أن المماليك كانوا على علم تام بهذه الدروع كما يستدل من مصدرين على درجة كبيرة من الاختلاف: فالأول يوضح أن جيرانهم من أتراك آسيا الصغرى، قد ألفوا ارتداء هذه الدروع، ويؤكد هذا ذلك النقش البارز الموجود في شنلي كشك في استنبول. أما المصدر الثاني فقد زودتنا به الزجاج المدهون بكنيسة القديس دينيس St. Denis بباريس، وعليها رسومات ترجع إلى القرن ١٨م، حيث يشاهد فيها أمراء مسلمون يقاتلون فرساناً مسيحيين ويرى في كل من المصدرين نفس الدرع الذي يمكن تفسيره على أنه أحد اثنين: إما درع من المعدن الخالص أو جازران وهي دروع من الجلد مكسوة بصفائح كبيرة من المعدن، تشبه تماماً تلك المجموعات المختلفة من الدروع الخشبية

أو المعدنية Splint armour التى استخدمها تتر آسيا الوسطى والمغول[١]. ونؤيد وجهة النظر تلك التى تؤكد مدى التأثير المغولى على الدروع المملوكية.

وبدون الدخول فى تفاصيل عقيمة تبعدنا عن موضوع الدراسة، ففيما يتعلق بالتأثير التترى أو المغولى على المغفر أو البيضة أو ما يعرف بأغطية الرأس المدرعة أى الخوذة التى كان يرتديها المماليك أثناء معاركهم ضد المغول أو الصليبيين، فقد ورد فى مصدر مملوكى موثوق به فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) إشارة إلى الخوذة المموهة بالذهب التى كان يلبسها المماليك أثناء القتال، كما حدث على سبيل المثال فى معركة عرض عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م بين المماليك ومغول فارس[٢]. ويبدو أن هذه الخوذة ذات سلاسل الزرد التى تغطى الوجه عدا العينين وكانت تمثل بمثابة أقنعة حديدية للوجه[٣]، كانت تستعمل لدى المماليك وكان لها ما يماثلها عند المغول والصليبيين[٤]. وعلى الرغم من محاولة

---

[١] ماير: الملابس المملوكية، ص٦٩ والحواشى. هذا ويؤكد ماير أن الدروع التى كانت تستعمل فى العصر المملوكى المكونة أساساً من صفائح معدنية كبيرة صلبة لم يصنعها المسلمون البته، ويذكر أنها أوربية بحته، وأن المستشرق هرتس بك أخطأ عندما اعتبر هذه الدروع إسلامية الصنع. وقد أورد ماير أدلة وشواهد تدعم رأيه هذا. راجع ماير: الملابس المملوكية، ص٦٩-٧٠. ولكن الأدلة التى اعتمد عليها ماير - فى رأينا - غير كافية لتأكيد أوربية الدروع المملوكية. وبالرجوع إلى مقال ماكس هرتس بك واللوحات الملحقة بمقاله المنشور فى مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية. القاهرة ١٩١٠م وعنوانه " أسلحة ودروع إسلامية " وتحليله للآراء حول هذه الدروع، نجد أن وجهة نظره صائبة

Herz Bey (Max), Armes et armures Arabes, in BIF AO, Le Caire 1910, to. VII (pp. 1-14) pls I-VIII, P. 11 Pl. VIII

[٢] مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١١٥ السطر الأخير.

[٣] ماير: الملابس المملوكية، ص٧٦. وينفى ماير استعمال المسلمين فى العصرين الأيوبى والمملوكى لهذا النوع من الخوذات.

[٤] ماير: الملابس المملوكية، ص٧٦.

المستشرق الألمانى ماير فى أن ينفى عدم استعمال المماليك لدرع الزرد أو الخوذات ذات سلاسل الزرد التى تغطى الوجه جميعه، كالتى مثلاً نجدها فى الأنواع التركية والفارسية[1]، إلا أنه يؤكد وجود هذه الخوذات لدى المماليك بذكره أن وجود مثل هذه الخوذات فى عصر المماليك اقتباساً من المغول أو الصليبيين قد تأكد فعلاً من شكل الفارس ذى الخوذة فى الصورة المحفورة على معمدانة القديس لويس، حيث نشاهد الزرد وهو يغطى وجهه مع ترك عينيه فقط مكشوفتين[2].

إن التأثير المغولى لم يقتصر فقط على أزياء أو ملابس الجيش المملوكى بل امتد ليشمل بعض أنواع الأسلحة التى كانت مستخدمة فى الحروب الخارجية أو حتى فى أثناء الصراعات داخل مصر بين الأمراء المماليك وحتى بين السلاطين المماليك على عرش السلطنة بصفة خاصة أثناء عصر المماليك الجراكسة على النحو الذى أوضحته بعض المصادر المملوكية المتأخرة من عصر دولة المماليك البحرية أو المعاصرة أو القريبة لعصر دولة المماليك الجراكسة كما سنوضح بعد قليل.

ففيما يتعلق بالأقواس المستعملة فى الجيش المملوكى، فعلى الرغم من أنه لا توجد فى المصادر المملوكية أدنى إشارة إلى وجود مؤثرات مغولية من ناحية استخدام القادة أو الجند لأقواس مغولية أو تترية الطابع أو الصفة فى عصر دولة المماليك البحرية، إلا أننا نجد إشارة فى النجوم الزاهرة عن استخدام أحد أمراء المماليك فى عصر دولة المماليك الجراكسة ويدعى الأمير بيبغا المظفرى لقوس تترى أو مغولى، أثناء الصراع الدائر بين أمراء المماليك فى مصر أثناء سلطنة الملك الصالح محمد بن الظاهر ططر ضمن حوادث سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م[3]. وعلى

---

[1] ماير: الملابس المملوكية، ص٧٦.

[2] ماير: الملابس المملوكية، ص٧٦-٧٧ والحواشى.

[3] أبو المحاسن: النجوم، ج١٤ ص٢١٩ سطر ١٢.

الرغم من أن هذا هو النص الوحيد الذى يشير إلى استخدام أمراء الدولة المملوكية فى عصرها الثانى الأقواس التترية ضمن أسلحة الجيش المملوكى، فإنه يمكن القول - استناداً إلى هذا النص - على أن هذه الأقواس كانت معروفة ومستخدمة لدى الجيش المملوكى منذ عصر دولة المماليك البحرية، منذ وفود العناصر المغولية أو التترية من القفجاق وهم يحملون معهم أسلحتهم وخيولهم وغيرها مما اعتادوا عليه فى بلادهم فى حروبهم، ويبدو أن هذه الأقواس كانت جيدة الصنع، الدليل إنها استمرت مستخدمة حتى العقود الأخيرة من عصر دولة المماليك الجراكسة على النحو الذى أكده صاحب النجوم الزاهرة(١).

ويؤكد وجهة النظر السابقة، ما عثرنا عليه من نصوص هامة ضمن المصادر المملوكية المعاصرة أيضاً لدولة المماليك الجراكسة التى تشير إلى مدى التأثير المغولى على بعض أنواع الأسلحة بالجيش المملوكى، وتتمثل فى نوع من السهام يعرف بالسهام الخطائية التى تشير المصادر المملوكية أنها استخدمت على نطاق واسع فى عصر دولة المماليك الجراكسة وبالتحديد فى سلطنة الناصر فرج بن برقوق عام ٨١٢هـ/١٤٠٩م(٢)، وفى عصر السلطان الناصر محمد بن قايتباى. كما أكد بذلك صاحب البدر الزاهر(٣) بين أعوام ٩٠١-٩٠٤هـ/١٤٩٦-١٤٩٨م. ويرجح أن هذه السهام الخطائية مغولية الأصل وتنسب إلى الخطا أو الختا أو الختاى(٤)، وهم طائفة من طوائف المغول استولت على بلاد المغول وقسم من الصين فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) بقيادة بوليجى آبو آكى وأطلق اسم الختا أو الخطا

---

(١) أبو المحاسن: النجوم، ج١٤ ص٢١٩.

(٢) أبو المحاسن: النجوم، ج١٣ ص٨٢ سطر ١٢.

(٣) ابن الشحنة: البدر الزاهر فى نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباى، تحقيق د. عمر التدمرى، ط. دار الكتاب العربى (بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص٧٣،٧٨-٧٩،٨٤.

(٤) العينى: السيف المهند، ص١٢٠؛ أيضاً بارتولد: تركستان، ص١٢٠٨.

علـى دولتهم الواسعة التى شملت أجزاء مـن دولـة الخوارزميين وذلـك فـى فـترة الصـراع بين حكامهم ويعرفـون باســم القراخطـاى وشـاهات خـوارزم، وانتهـت بـانتزاعهم لأجزاء عديـدة من منـاطق يـدى صـو وتركسـتان الشـرقية مـن أيـدى الخوارزمية[1]؛ واستمرت دولتهم مدة قرنين من الزمان إلـى أن تغلبـت عليهـم قبيلـة بوشى من قبائل مانجو[2].

وإذا علمنا أن الصالح نجم الدين أيوب، أول من أدخل المماليك إلى مصـر وعلى رأسهم الجلبان من مغول القبجاق، وأقبل علـى شـراء هـؤلاء الممـاليك الـترك ومعهم عنصر يسمى الخطائية[3]، ويبدو أن هذا العنصر الـذى اشـتراه الصـالح نجـم الدين أيوب قد جاء إلى مصر ومعهم أسلحتهم التى اعتادوا عليهـا وعلـى القتـال بهـا فى بلادهم، وكان من ضمنها السهام التى عرفت نسبة إليهـم باسـم السـهام الخطـائيـة والتى يعرفها القلقشندى بأنها سهام عظام يرمى بها عن قسى عظام توتر بلولب يجر بها ويرمى عنها فتكـاد تخرق الحجر[4]. ويقـال أن هـذه السـهام كـانت توضـع فـى رؤوسها كتل محترقة وتقذف على العدو تاركة وراءها خطاً نارياً[5]. ويبـدو أن هـذه السهام كانت تصنع فقط فى بلاد الخطا (الصيـن) وكـانت جيـدة الصنـع، كمـا كـانت عاملاً مؤثراً فى المعارك التى خاضها المماليك. ويبدو أنها أثارت إعجاب سـلاطين المماليك، فعمموا استخدامها فى الجيش المملوكى فى عصر دولة المماليك البحـريـة،

---

(1) بـارتولد: تركسـتان، ص٤٧٢؛ د. أميـن عبـد المجيـد بـدوى، نصـر اللـه مبشـر الطـرازى فـى تعليقاتهما وشروحاتهما لكتاب تاريخ بخارى للنرشـخى، ص٤٥ ح(١)؛ أيضـاً شـبولر: العـالم الإسلامي، ص٢١.

(2) النرشخى: تاريخ بخارى، ت. د. أمين بدوى، نصـر اللـه مبشـر الطـرازى، ط. دار المعـارف بمصر ١٩٩٣، ص٤٥ حاشية (١).

(3) أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٣٢٠.

(4) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٢ ص١٤٤.

(5) ابن الشحنة: البدر الزاهر، ص٧٣ ح(٢).

ويبدو أن كونها عاملاً فعالاً أو مؤثراً في الحروب التي خاضها المماليك، وحتى في صراعاتهم الداخلية في مصر، استمر استخدامها على نطاق واسع في عصر دولة المماليك الجراكسة بصفة خاصة في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق عام ٨١٢هـ/١٤٠٩م وذلك أثناء صراعه مع نائبه في الشام ويسمى الأمير شيخ والذى شق عصا الطاعة عليه[١]، ويؤكد صاحب النجوم الزاهرة أن هذه السهام الخطائية لعبت دوراً كبيراً في حسم الصراع الدائر لصالح السلطان الناصر فرج ضد نائبه شيخ في بلاد الشام[٢]. ويؤكد أهمية هذه السهام التي كانت تجلب خصيصاً من بلاد الخطا، لدى قادة وجند الجيش المملوكي أنها استخدمت بشكل مؤثر أيضاً في حسم الصراع الدائر على السلطنة المملوكية بين محمد بن قايتباى وأحد أمراءه ويسمى قانصوه، وأن أنصار محمد بن قايتباى من الأمراء المماليك، استخدموها على نطاق واسع وحسمت الصراع لصالح محمد قايتباى الذى تسلطن بديار مصر بعد هزيمة منافسه قانصوه[٣].

وقبل أن نختتم حديثنا عن التأثير المغولي أو التترى على النظم العسكرية المملوكية نود أن نشير إلى أنه نظراً لأن التنظيمات العسكرية التي أدخلها سلاطين المماليك وعلى رأسهم الظاهر بيبرس الأول في الجيش المملوكي والتي تتشابه إلى حد كبير مع بعض النظم المغولية، فقد كان من السهل على الفرسان المغول سواء من القفجاق أو من بلاد الخطا الوافدين إلى مصر الاندماج السريع في الجيش المملوكي، غير أن السلطان بيبرس الأول كان حريصاً كل الحرص على ألا يتجاوز المغول الوافدون حدوداً معينة سواء في الأعداد المسموح بها للالتحاق بالجيش أو حتى في الرتب العسكرية التي يرقون إليها، بل حتى في الأماكن التي يمكن أن

---

(١) ابن الشحنة: البدر الزاهر، ص٧٣،٧٨-٧٩،٨٤.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣ ص٨٢-٨٣.

(٣) أكد ذلك ابن الشحنة في أكثر من موضع من كتابه السابق.

يتواجدوا فيها. على أنه يلاحظ أن معظم هذه القيود التي فرضها بيبرس فى سلطنته على هؤلاء المماليك المغول لم تستمر فيما بعد فى عهد من تلاه من السلاطين وحتى نهاية عهد دولة المماليك الأولى على النحو الذى أكدته العديد من المصادر المملوكية.

ولدينا رأى يشير إلى مدى تأثر الجيش المملوكى بالجيش المغولى فيما يتعلق بعمليات تعبئة الجيش وتحركاته، طبقاً للخطة المتبعة فى الجيش التترى من حيث تطويق سائر قوات العدو، والإحاطة بها من جميع الجهات متخذين فى ذلك نظام الحلقة التي اعتاد التتار نصبها للإيقاع بالوحوش أو ساروا عليها فى الإيقاع بأعدائهم[1].

وعلى هذا النحو كان التأثير المغولى على النظم العسكرية المملوكية متشعباً في كل الجوانب الخاصة بالجيش المملوكى من حيث فرقه وألقاب ووظائف الأمراء والقادة فيه، وكذلك الملابس والأسلحة، بل والمعسكرات التى كان ينزل بها

---

[1] د. العرينى: المماليك، ص٢٥٦. معتمداً على بولياك .Poliak. ونحن لا نعرف إذا كان سلاطين المماليك اقتبسوا أو تأثروا ببعض التكتيكات العسكرية المغولية الأخرى فى ميادين الحرب والقتال خاصة أثناء حروب أو معارك الجيوش المملوكية ضد مغول فارس أو الصليبيين أو إذا كانوا قد طبقوا بعض الأساليب المغولية فى مواجهة المغول أنفسهم تطبيقاً لمبدأ لا يفل الحديد إلا الحديد. على أننا فضلنا عدم الخوض فى مثل هذه الجزئية من التأثيرات والتى تتميز بخطورتها خاصة وأن المصادر المملوكية المعاصرة لدولة المماليك البحرية والمتأخرة عنها لم تشر على الإطلاق إذا كانت الجيوش المملوكية طبقت نفس فنون الحرب والقتال المستخدمة لدى الجيوش المغولية أم لا. خاصة وأن تكتيكات المغول العسكرية فى المعارك البرية وعمليات الحصار الخاصة بالمدن كانت تتنافى تماماً مع الشريعة الإسلامية وتثير الاشمئزاز خاصة فيما يتعلق بمعاملة سكان المدن المحتلة من المغول أو أسرى المعارك البرية. للاستزادة عن طرق محاربة المغول وسلوكهم مع المغلوبين راجع ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ط. القاهرة ١٣٤٨-١٣٥٨هـ، ج٩ ص٣٣٧؛ أيضاً د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٦٠-٢٦٣.

الجيش المملوكى، ونظراً لأن أصل المماليك الذين اعتلوا عرش السلطنة المملوكية فى مصر من أواسط آسيا، فلم يكن مستغرباً أن كثيراً من العادات والتقاليد بما فيها النظم العسكرية المعمول بها على ضفاف الفولجا، نجده أيضاً على ضفاف النيل.

٢- التأثير المغولى على الهيكل السياسى للدولة المملوكية فى عصر سلاطين المماليك البحرية:

إن التأثير السياسى المغولى على البنية السياسية أو الهيكل السياسى للدولة المملوكية فى مصر في عهد دولة المماليك البحرية بالذات، ومحاولة تأكيد الطابع المغولى (المغول القبجاق والخطا ومغول فارس بصفة خاصة) السياسى والعسكرى لمصر، فى هذا العصر ، إنما تبدأ جذوره فى الحقيقة منذ أواخر العصر الأيوبى وبالتحديد أواخر سلاطين بنى أيوب وذلك أثناء عهدى الصالح نجم الدين أيوب وابنه تورانشاه على النحو الذى أكدته غالبية المصادر المملوكية.

إن الصالح نجم الدين أيوب الذى يعتبر صاحب الفضل الأول فى تكوين فرقة جديدة من المماليك، ضمن فرق الجيش الأيوبى[١]، والتى قدر لها أن تنهض بدور خطير فى التاريخ، وهى فرقة المماليك البحرية، واعترافاً بفضل هؤلاء المماليك فى مساعدته للوصول إلى دست السلطنة، وحاجته إلى جيش قوى من المماليك يسانده فى حكمه فى الداخل، ومواجهة الأخطار فى الخارج، بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى من الجند المرتزقة، دفعه إلي تكوين مثل هذه الفرقة الجديدة[٢]. ويعبر المؤرخ ابن أيبك الدوادارى عن ذلك قائلاً " أنه (أى الصالح نجم الدين أيوب) اشترى من المماليك الترك ما لم يشتر أحد من المماليك مثله حتى عاد أكثر جيشه مماليك، وذلك لكثرة ما جرب من غدر الأكراد والخوارزمية وغيرهم

---

[١] أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٣١٩.

[٢] د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص١٥٢.

من الجيوش[١] ". ولهذا أقبل على شراء المزيد من المماليك[٢] واختارهم من الترك والخطا[٣]. على أن لفظ الترك يشمل معان كثيرة، فهو تسمية خاطئة لدولة المماليك الأولى في مصر على حد تعبير أحد المؤرخين المحدثين الكبار[٤]، ونحن نؤيده فى وجهة النظر تلك[٥]، لأن الترك اسم جنس للمماليك الذين جاءوا من بلاد القبجاق، أصحاب السيادة فى العصر المملوكى الأول، وهم ضمن القبائل التى سيطر عليها المغول فى أثناء غزوهم لبلاد الشرق والشمال والقبجاق فى عهد باتو (باطو) خان ابن دوش خان بن جنكيز خان، وأخضع لسلطانه سكانها من القبجاق والخطا والعلان واللان والأولاق والجركس فضلاً عن الروس[٦]. وأصبحت مملكة باطوخان ومقرها سراى على نهر الفولجا تمتد من خوارزم إلى أطراف القسطنطينية، ومن روسيا إلى القوقاز، وبذلك امتزج التتار والمغول بالترك فى هذه البلاد[٧]. ويبدو أن العنصر

---

[١] ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر، (مخطوط دار) ج٧ ورقة ٣٠٠ نقلاً عن د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص١٥٣.

[٢] تراوح عدد المماليك الذين اشتراهم الصالح نجم الدين أيوب ما بين سبعمائة إلى ثمانمائة مملوك. راجع المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٣٦.

[٣] أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٣٢٠.

[٤] د. العرينى: المماليك، ص٥٤.

[٥] هذا الرأى من قبل أستاذنا الدكتور السيد الباز العرينى يعارض بذلك مسميات المصادر المملوكية التى تؤرخ لهذه الفترة ولهذه الدولة تحت اسم الدولة التركية وسلاطينها باسم ملوك الترك. راجع مثلاً بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية فى الدولة التركية، تحقيق د. عبد الحميد حمدان، القاهرة ١٩٨٧. وهو يؤرخ لدولة المماليك البحرية فى الفترة من عام ٦٤٨-٧١١هـ. وكتاب ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر: الجزء الثامن المعروف باسم الدرة الذكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م؛ ابن سباط: تاريخ ابن سباط، جزءان ط. طرابلس لبنان ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

[٦] د. العرينى: المماليك، ص٥٥. معتمداً على مصادر.

[٧] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٧٤.

التترى أو المغولى كان يكون الأغلبية ذات السيادة فى هذه البلاد، ومنهم توفر أعداد كبيرة فى أسواق الرقيق لا سيما القبجاق والخطا.

وأجمع المؤرخون على أن مغول القبجاق بصفة خاصة كانوا " من خيار الترك أجناساً لوفائهم وشجاعتهم وتجنبهم الغدر، مع تمام قاماتهم وحسن صورهم وظرافة شمائلهم[1] ". وقد كون الصالح أيوب من هؤلاء القبجاق والخطا بطانته والمحيطين بدهليزه[2]؛ فكان منهم حرسه الخاص، وعاشوا فى كنفه ورافقوه فى حملاته العسكرية وفى استراحاته، وكانوا دائما حول خيمته وجعل مركزهم فى قلعة جزيرة الروضة والتى اتخذها هو مركزاً للحكم وسكناً له معهم، وسماهم البحرية[3] ". وعلى الرغم من أن فرقة المماليك البحرية تلك كانت تمثل العمود الفقرى للجيش الأيوبى، وبرز منهم العديد من القادة مثل أيبك، وأقطاى، وقطز، وبيبرس أو بكبرس، وقلاوون وغيرهم وكان أغلبهم - إن لم يكن كلهم - من مغول القبجاق، كما ذكرنا آنفاً فى مواضع عديدة من هذه الدراسة[4]، إلا أن الصالح أيوب كان حريصاً على ألا يتجاوز هؤلاء المماليك المغول حدوداً معينة سواء فى الأماكن التى يتواجدوا فيها أو حتى فى الوظائف أو الرتب العسكرية التى يرقون إليها، كما أنه كان حريصاً أشد الحرص على ألا يوضعوا فى أية مناصب سياسية كنواب للسلطان أو وزراء أو كأمراء أقاليم وخلافه، لأنه كان يخشى من تزايد نفوذهم العسكرى مع نفوذهم السياسى فى حالة ارتقاءهم مناصب سياسية فى السلطنة الأيوبية، من الاستيلاء على السلطة فى البلاد فيما بعد؛ ولذلك جعل معظم

---

(1) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٨.

(2) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٣٦.

(3) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٣٦؛ السلوك، ج١ق٢ ص٣٣٩-٣٤٠؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٣٢٠. ويذكر أبو المحاسن أنه أنفق أموالاً عظيمة لبناء هذه القلعة وأنه استمر بناءها زهاء ثلاثة أعوام.

(4) راجع مناقشة العينى للآراء المختلفة حول أصول هؤلاء المماليك فى السيف المهند ص٤٧.

مهامهم في عهده حراسة قلعة الروضة التي اتخذها مركزاً لحكمه وسكنه، ومساعدته في إرساء قواعد حكمه في الداخل. ولكن الصالح نجم الدين أيوب لم يكن يدور بخلده أنه في يوم من الأيام تمكن هؤلاء المماليك المغول القبجاق من أن يحلوا محل سادتهم الأيوبيين في حكم مصر، وتسنموا السلطة وسيطروا على مقدرات الأمور في مصر سياسياً وعسكرياً وعبر عن ذلك القلقشندي قائلاً " ثم صار من مماليكه (أي مماليك الصالح أيوب) من انتهى إلى الملك والسلطنة[1] ".

فبعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب أثناء حملة لويس التاسع السابعة على مصر، لعب المماليك البحرية الدور الرئيسي والفعال في الانتصار على الصليبيين في معركة المنصورة وفارسكور عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م مما أدى إلى ازدياد قوة شوكتهم عسكرياً وسياسياً لإحساسهم بأنهم أصحاب الفضل الأول في إنقاذ مصر والشام من خطر الفرنج[2]. وعندما ارتقى المعظم توران شاه بن الصالح أيوب القادم من حصن كيفا، دست السلطنة، قلب ظهر المجن للمماليك البحرية، الذين وجد فيهم حجر عثرة تعترض سلطانه المطلق، فبدأ يفكر في التخلص منهم واحداً بعد الآخر، " وذلك بأن أعرض عنهم، وأهمل الأمراء والأكابر من أهل الحل والعقد، وقدم الأراذل فضلاً عن انهماكه في الملذات ". على أن رعونة وخشونة توران شاه تجاه المماليك وكبار رجال الدولة وعلى رأسهم زوجة أبيه شجر الدر جره إلى الدخول في صدام محقق مع المماليك البحرية الذين قرروا التخلص منه قبل أن يتخلص هو منهم، فقتلوه أثناء وليمة أقامها لهم[3].

---

[1] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٨.

[2] بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص٢٥؛ المقريزي: السلوك، ج١ ق٢ ص٣٥٠،٣٥٥-٣٥٦؛ الخطط، ج٢ ص٢٣٧.

[3] المقريزي: السلوك، ج١ ق٢ ص٣٥٢،٣٥٨-٣٦١؛ الخطط، ج٢ ص٢٣٧؛ أيضاً د. العريني: المماليك، ص٤٦؛ د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص١٥٦-١٥٧.

والواضح أن مقتل توران شاه على أيدى مماليك أبيه القبجاق يؤكد مدى ما وصلت إليه فرقة البحرية من نفوذ سياسى وعسكرى، فقد تخلصوا من توران شاه دون أن تحرك بقية عناصر الجيش الأخرى ساكناً لإنقاذه، على النحو الذى أوضحته المصادر المملوكية[1] وأصبح مماليك المغول القبجاق هم أصحاب السلطة الفعلية فى مصر من الناحية السياسية، ووقع الاختيار على واحدة من جنسهم أو جلدتهم من الأتراك القبجاق وهى شجر الدر التى أقاموها على دست الحكم، فباشرت سلطتها استناداً على ركيزتين رئيسيتين: أمومتها لابن متوفى من أبناء السلطان الصالح أيوب، والثانية اعتماداً على تأييد أبناء عمومتها من المماليك القبجاق الصالحية لها[2]، ولذا يعتبرها المقريزى " أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك[3]". وكان ذلك توطئة لارتقاء المماليك القبجاق وعلى رأسهم عز الدين أيبك التركمانى دست السلطنة فى مصر من الناحية السياسية.

ثم تطورت الأمور السياسية فى مصر على نحو مفاجئ، بتولية عز الدين أيبك التركمانى المغولى القبجاقى الأصل[4] عرش السلطنة بعد زواجه من شجر الدر[5] على أسنة رماح المماليك البحرية أنفسهم بعد اتفاقهم على أن يسلطنوه[6] وعبر عن ذلك أحد المؤرخين المعاصرين وشهود عيان هذه الفترة تعبيراً رائعاً

---

(1) مثلاً أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٣٧١-٣٧٢.

(2) هكذا أكد كل من المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٣٧؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٣٧٢.

(3) المقريزى: السلوك، ج١ ص٣٦١.

(4) على الرغم من محاولة العينى التأكيد بأن عز الدين أيبك تركمانى الأصل وأنه لم يعرف له أصل غير ذلك كما ذكر فى السيف المهند، ص٤٧. إلا أن المصادر الأخرى تذكر أنه تركياً من القبجاق وتلقبه بالتركمانى لانتسابه إلى عائلة تحمل هذا الاسم قبل اعتلائه عرش الحكم. المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٣٧؛ السلوك، ج١ ق٢ ص٣٦٨.

(5) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٣٧؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٣٧٤.

(6) هكذا أكدت غالبية المصادر المملوكية. أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٤.

بقوله " وضبطت البحرية المملكة ضبطاً حسناً، وبسطوا فيهـا أيدى وألسناً، ورتبوا الأمير عز الدين أيبك التركماني في أتابكيه العسكر وتنفيذ النواهي والأوامـر وتدبير الدولـة. وزوجوه بشـجر الـدر... ثم اتفقت الآراء وأجمعت الأمـراء علـى توليتـه السلطنة لتكون القواعد حينئذ ممكنة، فألقوا المقاليد إليـه، واتفـق إجمـاعهم عليـه[1] ".

ويلاحظ أن عز الدين أيبك لم يكتف بتولية عرش السلطنة وتحكمه في مقاليد الأمـور في الدولة، بل عمل على وضع العديد من مماليكـه المغـول القبجـاق فـى العديـد مـن المنـاصب السياسـية، فقـام بتعييـن أحـد مماليكـه ويسـمى سـيف الديـن قطـز المعـزى المغولي نائباً للسلطنة وصير إليه أمر الجيوش، " وهو أول من ولى هذه الوظيفة من الممـاليك " علـي حـد قـول صـاحب التحفـة الملوكيـة[2]. وهـذا تـأكيد ببدايـة الزحـف المملوكـي المغولـي علـى الوظـائف أو المنـاصب السياسـية العليـا - بالإضـافة إلـى مراتبهم العسكرية - في مصر.

وتطورت الأمور السياسية بشكل سريع في مصر بعد مقتـل كـل مـن عـز الدين أيبك وشجر الدر عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م[3]. وقد أحدث موت أيبـك وشـجر الـدر فراغاً كبيراً في صفـوف الممـاليك البحريـة مـن الناحيـة السياسـية والعسـكرية وفتـح الباب على مصراعيه أمام القوى الأخرى للتنافس على الحكـم، خاصـة أمـام زعمـاء أو قـادة الممـاليك البحريـة المغـول الأصـل وعلـى رأسـهم قطـز، نـائب السـلطنة. والمعروف أن المماليك لم يؤمنوا مطلقاً بمبدأ الوراثة في الحكم، وإنمـا اعتنقـوا مبـدأ

---

[1] بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص٢٦.

[2] بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص٣٣.

[3] بيبرس المنصوري: التحفـة الملوكيـة، ص٣٩؛ المقريـزي: الخطـط، ج٢ ص٢٣٨؛ أبـو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٤١-٤٢؛ أيضاً د. سعيد عاشور: مصر والشـام، ص١٦٣-١٦٥. معتمداً على مصادر.

الحكم للأقوى[1]، وهو المبدأ الذى اعتنقه بنى عمومتهم من المغول منذ ظهور جنكيز خان وتأسيسه للإمبراطورية المغولية، وطبقوه هم (المماليك من أصل مغولى) فى انتزاع الحكم بمصر، ليصبحوا بذلك مغتصبين للحكم أو العرش من أصحابه الأصليين.

وعندما وجد المماليك أنفسهم أمام مشكلة الإجماع على أحدهم ليتولى منصب السلطنة، استقر رأيهم على اختيار نور الدين علىّ بن أيبك، فأعلن سلطاناً ولقب بالملك المنصور، وكان فى الخامسة عشرة من عمره فاختير سيف الدين قطز نائب السلطنة، أتابكاً له[2]، وليصبح قطز المغولى الأصل، بذلك هو الحاكم الفعلى للبلاد فى ظل سلطان صغير قاصر، والذى استولى علىّ العرش بعد ذلك بحجة حاجة البلاد إلى سلطان قاهر يقاوم التتار الذين أسقطوا بغداد وقضوا على الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م واقترب خطرهم من الشام ومصر[3] وليصبح قطز ذلك المغولى القبجاقى ثالث سلاطين المماليك، بعد أن اغتصب العرش من الملك المنصور على بن أيبك والذى كان والده وزوج أبيه شجر الدر، ذوى الأصل التركى أو المغولى، غاصبين للعرش من أصحابه الشرعيين من بنى أيوب. وعبر عن ذلك أحد المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة قائلاً فى بيان جزل " وأما العصابة التركية (المماليك البحرية) فأخذتهم العصبية وحركتهم للدين الحمية، وعزموا على إقامة سيف الدين قطز ملكاً، فإنه كان فى المملكة مشاركاً ليحضر معهم المصافات التى كانوا يتوقعونها، ويمارس الحروب التى كانوا ينتظرونها لصغر سن ولد المعز من مكافحة ذلك كله، فهموا بعزله وتولية الأمير سيف الدين قطز المعزى لشهامته

---

(١) د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص١٦٦.

(٢) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٣٨؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٤٢-٤٣؛ أيضاً د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص١٦٦.

(٣) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٣٨؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٥٠،٥٥.

وهمته[1]". والواقع أن مثل هذه العبارة من قبل المؤرخ بيبرس المنصورى[2] الدوادار الخطائى الأصل والذى كان هو نفسه أحد كبار رجال الدولة المملوكية وارتقى العديد من المناصب فى عصر دولة المماليك البحرية منذ عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م حتى وفاته عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م[3]، وهو مغولى مثلهم، اعترافاً بمدى طموحات وأطماع المماليك المغول القبجاق الأصل، وهم من بنى جنسه فى الوثوب إلى عرش الحكم، ومدى تعصبهم لبعضهم البعض أو لبنى جنسهم من المغول، رغم إجماع المصادر على اعتناقهم الإسلام وحسن إسلامهم، وجهادهم فى سبيل هذا الدين، وحمد الإسلام مواقفهم فى حماية الدين[4]، إلا أنهم لم ينسوا أصلهم المغولى وتعصبوا له، ولهذا لم يكتفوا بالسيطرة على الحياة العسكرية فى مصر، بل امتدت أطماعهم لتحقيق السيطرة على الحياة السياسية أيضاً، ولهذا لم يتورعوا بعد وفاة الصالح أيوب وقتلهم لتوران شاه من أن يفكروا فى اغتصاب العرش من أيدى الأيوبيين، فقاموا بتولية امرأة من بنى جنسهم هى شجر الدر وزوجوها من أحد قادتهم الكبار وهو أيبك وهو مغولى قفجاقى لضمان السيطرة على الحكم فى مصر، وانتهت هذه الأطماع أو الطموحات بقيام سيف الدين قطز المغولى بالانتزاء بحكم مصر منذ عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م فى محاولة لبناء كيان سياسى لهم فى مصر يغلب عليه الطابع المغولى القبجاقى، ويكون امتداداً للدولة التى أقامها سيدهم بركه خان قبيلة المغول الذهبية فى جنوب روسيا، مما يؤكد مدى التأثير المغولى القبجاقى بصفة خاصة على الحكم فى مصر وعلى البنية السياسية أو النظم السياسية للدولة

---

[1] بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية، ص٤١.

[2] نسبة إلى المنصور قلاوون.

[3] مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٥٧، ١٦٦؛ أيضاً مقدمة كتاب التحفة الملوكية للمحقق د. عبد الحميد حمدان، ص٧-٨.

[4] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٨.

التى أقاموها فى مصر. والغريب فى ذلك أن المؤرخ أبو المحاسن، الذى كان معاصراً لدولة المماليك الثانية، يورد لنا نصاً يؤكد ما سبق أن قلناه، من أن هؤلاء المماليك المغول مغتصبون للعرش ويصف عهدهم بأنه أسوأ عهود مصر قائلاً " والملك المظفر قطز هذا أول مملوك يخلع ابن أستاذه من الملك وتسلطن عوضه، ولم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك وتمت هذه السنة السيئة فى حاصد إلى يوم القيامة. وبهذه الواقعة فسدت أحوال مصر[1]".

إن هؤلاء المماليك المغول القادمين من سهوب أواسط آسيا والمتمرسين بأساليب القتال والفروسية على النمط المغولى ببلاد القبجاق والخطا، وعلى رأسهم قطز وأحد خشداشيته[2] وهو بيبرس البندقدارى تصدوا لجحافل المغول، واستطاعوا أن يحرزوا انتصاراً رائعاً على بنى عمومتهم وبنى جنسهم فى آن واحد من مغول فارس فى معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وهو الانتصار الذى يمثل نقطة تحول فاصلة فى التاريخ بصفة عامة، وبالنسبة لنظام المماليك المغولى الشكل فى مصر بصفة عامة، والذى لم يمض وقت طويل على تأسيسه (عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠) وتسنم المماليك السلطة وتوطدت سلطتهم ونفوذهم منذ تلك المعركة، وأوقفت المد المغولى لبنى عمومتهم، وأكدت استمرار استقلال مصر تحت سيادتهم، ولتصبح دولة المماليك قوة مقابلة موازية للمغول، وحصناً واقياً للإسلام وهذا يحسب لهم، وهم القوة الوحيدة التى استطاعت أن تواجه المغول وتهزمهم، بعد أن كانت القلوب

---

(١) أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٥٦ سطور ١-٣.

(٢) خشداش أو خوجداش: كلمة أصلها بالفارس خواجه تاش وتعنى المملوك الذى زامل آخر فى خدمة السلطان أو الأمير أو رفيقه فى السلاح.

Quatremére (E.), Histoire des sultans Mamlouk de l'Egypte, Paris 1837-1845, to I, p. 44.

قد يئست من النصـرة عليهم لاستيلائهم على معظم البلاد الإسلامية، " وأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه[1] ".

ولا شك أن معرفة المماليك بفن الحرب والقتال لدى بنى جلدتهم من المغول وأساليب النزال لديهم مكنتهم من مواجهة المغول وهزيمتهم، كما أن المماليك الذين بدأوا يقيمون لأنفسهم كيان سياسى فى مصر، كانوا يدركون أن هزيمتهم فى هذه المعركة أمام مغول فارس وإيلخاناتهم، سوف يضع نهاية لأطماعهم وأحلامهم السياسية والعسكرية فى إقامة كيان لهم له صفة الدوام والاستقرار فى مصر والشام، ويمثل امتداداً لدولة الأوردو الذهبية وحاكمها بركاى (بركه) خان فى جنوب روسيا التى شهدت مولدهم ونشأتهم وتدريبهم على فن الحرب والقتال المغولى، ولهذا كان لابد من الإجهاز على هذه القوة المغولية وتم لهم ما أرادوا[2]. وأكد القلقشندى على هذا المعنى فى بيان جزل بقوله " وكفى بالنصرة الأولى فى يوم عين جالوت فى كسر الملك المظفر قطز صاحب مصر إذ ذاك فى سنة ثمان وخمسين وستمائة عساكر هولاكو ملك التتر بعد أن عجز عنهم عساكر الأقطار، واستأصلوا شأفة السلطان جلال الدين محمد بن خوارزم شاه وقتلوا عساكره، مع أن الجيش المصرى بالنسبة إلى العساكر الجلالية كالنقطة فى الدائرة، والنغبة من البحر .... [3]".

وهذا النصر كان يمثل الواجهة الشرعية لحكم المماليك بعد أن أصبحوا هم القوة الوحيدة القادرة على الدفاع عن مصر وبلاد الشام. وإذا كان المظفر قطز

---

(1) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ط. القسطنطينية ١٢٨٦هـ، ج٣ ص٢١٤.

(2) للاستزادة عن نتائج معركة عين جالوت راجع د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٠٨-٢١٠؛ د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص١٧٠.

(3) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٨.

قد قتل غدراً وهو فى طريق عودته إلى القاهرة[1]، فإن قاتله ورفيقه فى السلاح (الخشداشية) وهو بيبرس قد اعتلى دست الحكم، كمغتصب آخر للعرش تحت اسم السلطان الظاهر بيبرس الأول[2]، ولكي يضع الأسس الثابتة لدولة المماليك الأولى سياسياً وعسكرياً وكان عنصر القبجاق من الترك والمغول من بني جنسه هو الدعامة الأساسية لتلك الدولة فى مصر والشام[3].

إن إحساس هؤلاء المماليك المغول وعلى رأسهم بيبرس الأول إنهم مغتصبون للسلطة من أيدى قطز قاهر المغول ومن قبله من أيدى سادتهم من بنى أيوب، بالاضافة إلى معرفتهم بأصلهم غير الحر، باعتبارهم رقيق جلبان أو أجلاب جلبوا من القبجاق والخطا، جعلهم يبحثون عن سند شرعى قوى لاتخاذه دعامة وواجهة لإكساب حكمهم صفة الشرعية أمام العالم الإسلامي. وإحاطة عرشهم بسياج من الحماية الروحية، وذلك بمحاولة إحياء الخلافة العباسية التى كانت قد سقطت فى بغداد، واهتمام بيبرس بالبحث عن أحد أبناء البيت العباسى لإقامته خليفة بمصر[4]، وعندما تم له ذلك فى شخص أبى القاسم أحمد والذى لقب بالمستنصر

---

(1) للاستزادة عن ظروف مقتل قطز راجع ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٦٧-٦٨؛ المقريزى: السلوك، ج١ ق٢ ص٤٢٩-٤٣٥؛ الخطط، ج٢ ص٢٣٨؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٨٣-٨٤؛ أيضاً د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص١٧١-١٧٢. معتمداً على مصادر.

(2) هذا الرأى تأكيداً لما ذكره أستاذنا الدكتور سعيد عاشور فى كتابه مصر والشام، ص١٧٦.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٦٦-٧٠؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٣٨؛ السلوك، ج١ق٢ ص٤٢٩-٤٣٥.

(4) للاستزادة عن أسباب اهتمام بيبرس بإحياء الخلافة العباسية فى مصر راجع البحث القيم الذى كتبه أستاذنا الدكتور محمد عبد العال أحمد: أضواء جديدة على إحياء الخلافة العباسية، ط. القاهرة عام ١٩٨٧، ص٢٣-٣٦. معتمداً على مصادر.

بالله وتوليه الخلافة بمصر في ١٣ رجب ٦٥٩هـ/١٣ يونيه١٢٦١م[١]، وبمجرد تولية المستنصر بالله الخلافة، قام بتقليد الظاهر بيبرس الأول السلطنة[٢]. وبذلك تم له ما أراد وأصبح يتولى منصبه بتفويض من أكبر سلطة شرعية في العالم الإسلامي وهي الخلافة[٣]. على أن بيبرس الذى كان يطبق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، ما كاد يقضي وطره من الخلافة وحصل على ما كان يطمع فيه من تفويض بالسلطنة، حتى بدأ يفكر بسرعة في التخلص من الخليفة العباسي المستنصر، بعد أن شعر أنه أوجد لنفسه شريكا في الملك، فادعى بيبرس أنه يرغب في إعادة الخليفة إلى قاعدة العباسيين في بغداد، فخرج معه إلى دمشق، ثم ترك الخليفة يخترق الصحراء ومعه جماعة من الأعراب والترك قاصداً العراق ليلقى المسكين حتفه ومن معه على أيدى المغول قرب هيت[٤].

واستقر الأمر لبيبرس في حكم مصر، وشرع في التفكير بإنشاء جيش قوى لحماية البلاد ومواجهة الخطرين المغولي والصليبي، وتثبيت أقدامه في الحكم الذى يبدو أنه فكر في جعله حكماً وراثياً في أعقابه من بعده وهو المبدأ الذى سار عليه خلفاؤه من سلاطين المماليك وعلى رأسهم آل قلاوون في عصر دولة المماليك البحرية، ومثل آل برقوق في عصر دولة المماليك الثانية (الجراكسة)، مخالفين بذلك

---

(١) راجع ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٩٩-١٠١؛ بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية، ص٤٧؛ زبدة الفكرة، ج٩ ص٧٨؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٠٩-١١١؛ أيضاً د. محمد عبد العال: إحياء الخلافة العباسية، ص٣٥-٣٦.

(٢) للاستزادة راجع ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٠٠-١٠١؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٧٩-٨١؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١١١-١١٣.

(٣) السيوطى: تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين، ط. مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة (بدون تاريخ)، ص٣١٦-٣١٧؛ أيضاً د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص١٧٧. معتمداً على مصادر.

(٤) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣١٨؛ أيضاً د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص١٧٨؛ وراجع ما ذكره د. محمد عبد العال حول ذلك في إحياء الخلافة، ص٣٨-٤٣. معتمداً على مصادر.

المبدأ الذى سار عليه المماليك المغول من بنى جنسهم منذ تولية شجر الدر وعز الدين أيبك بعدم الاعتراف مطلقاً بمبدأ الوراثة فى الحكم، وإنما اعتنقوا مبدأ الحكم للأقوى[1].

إن بيبرس الذى لم ينس أصله القبجاقى وهو يضع الأسس الأولى لإنشاء قوة عسكرية، بدأ يوجه اهتمامه إلى فرقة البحرية الصالحية وكان معظمها من بنى جنسه القبجاق لكى تكون حجر الزاوية فى إنشاء ذلك الجيش القوى، فرفع من شأن أفرادها باعتبارهم خشداشيته وذلك للحفاظ على حكم مصر والشام فى سلالته وبنى جنسه وليحول دون سيطرة أى عنصر أو جنس آخر على الحكم والجيش، وعبر عن ذلك ابن عبد الظاهر قائلاً " ولما أعطاه الله الملك لم يشغله شئ عن الإحسان إلى كبيرهم وصغيرهم، وقدمهم بعد أن اعتقد كل منهم إنهم لا تقوم لهم قائمة أبداً، وجمع شملهم بعد أن كانوا تهججوا فى البلاد، واستخفوا حتى أن أحداً منهم ما كان يجسر بذكر لفظة " التركية " ولا " الجندية ". فلما مَنّ الله بإقبال دولة السلطان جمع منهم الشريد، وقرب البعيد، وقدم المتأخر، وولى المعزول، ورد عليهم ما كان غصب من أملاكهم وأموالهم ونعمهم، وأمر من يستحق الأمره، وقدم عليهم من يصلح للتقدمة، وجعل ديواناً مفرداً، وصاروا من المختصين به، والمحافظين لقلعته فى غيبته وحضوره، وما اقتنع بذلك حتى تفقد أولاد من مات فى هذه المدة من خوشداشيته ومماليكهم وغلمانهم وأتباعهم، وقرر لهم المقررات..."[2]. هذا النص يلمح إلى أن بيبرس قرر أن يجعل دولة سلاطين المماليك دولة مغولية أو تركية الصبغة سياسياً وعسكرياً، ويؤكد التأثير المغولى القبجاقى عليها، فأنشأ فرقة أخرى من مماليك البحرية من أصل قبجاقى وخطائى والذين لم يثق إلا بهم، عرفت باسم

---

(1) د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص١٦٦.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٧٤.

البحرية الظاهرية، وعزلها عن فرقة البحرية الصالحية، وصار لكل منهم مقدم خاص بها يكونوا بمثابة حرسه الخاص، ويقومون بحراسة القلعة مركز الحكم[1].

إن المماليك الذين كانوا يشعرون دائماً بالغربة داخل مصر باعتبارهم عناصر دخيلة على رعاياهم فى مصر والشام وإدراكهم إنهم يحكمون شعباً ذا طبيعة مختلفة، رغم اعتناقهم الإسلام وتمسكهم به، كانوا يحرصون تمام الحرص على التمسك بالروابط التى تربطهم بأصولهم العرقية من ناحية، وببعضهم البعض من ناحية أخرى لأنهم وجدوا فيها ما يبتغونه من أمان وراحة نفسية فى سيطرتهم السياسية والعسكرية على الحكم فى مصر وبلاد الشام، جعلهم ينتصرون لبنى جنسهم من مغول القبجاق والخطا وغيرهم، ولهذا فإن بيبرس الأول عندما أدرك أن عدد المماليك البحرية: قادة وجند غير كاف لتكوين جيش قوى على أسس راسخة وبالتالى تدعيم دولة المماليك الناشئة على أسس قوية عسكرياً وسياسياً، رأى أن يعتمد على بنى جنسه القادمين من سهوب أواسط آسيا، ومن هذا العنصر كان السلاطين المماليك المؤسسون لتلك الدولة كما سبق أن ذكرنا فى مقدمة هذه الدراسة، ولهذا نجد بيبرس الأول يتبنى سياسة استقدام الكثير من المماليك القبجاق، فلم يكتف فقط بما كان يجلب إليه من هؤلاء القبجاق وما يقع من سبى أثناء الحروب مع التتار والسلاجقة الروم[2]، بل بعث التجار ليشتروا له المماليك من بلاد التتار، ومن أجل ذلك منح تجار هؤلاء الرقيق إعفاءات من الضرائب أو ما يمكن أن يقال الرسوم التى كانت تفرض على بضائعهم ورقيقهم من الجلبان أو الأجلاب من بلاد القبجاق حيث مملكة بركه خان حتى وصولهم إلى مصر[3]، كما أنه تحالف مع بركه

---

(1) ابن الفرات: تاريخه، مجلد٧ ص٢٠٧؛ المقريزى، ج٢ ص١١١-١١٢؛ السلوك، ج١ق٢ ص٦٥٨.

(2) المقريزى: السلوك، ج٢ ص٨٩.

(3) أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٢.

خان مغول القبيلة الذهبية عند بحر قزوين، وهم الذين اعتنقوا الإسلام، لتسهيل مهمة شراء المماليك القبجاق[1]، كما أنه لم يتورع من أن يتحالف مع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس من أجل نفس الهدف، ويحصل من الإمبراطور البيزنطي على موافقته بمرور سفن مصرية مشحونة بالمماليك عبر البوسفور مروراً بالبحر الأسود مرة كل عام[2].

وأدت هذه السياسة المملوكية القائمة على العصبية القبلية أو العرقية والتي تستند على تأكيد مغولية الدولة المملوكية في مصر والشام سياسياً وعسكرياً إلى وفود طوائف كثيرة من المغول بدأت تترى إلى مصر إما عن طريق الشراء، وإما لاجئون ومنفيون نزحوا أو هاجروا إلى دولة المماليك مع أبنائهم ونسائهم وامتلأت بهم مصر ورحب بهم بيبرس ترحيباً لا حدود له[3]، كما أكد بذلك القلقشندي بقوله " فمالت الجنسية إلى الجنسية، ووقعت الرغبة في الاستكثار منهم حتى أصبحت مصر

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1 ص465.

(2) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9 ص88؛ أيضاً د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص180؛ د. زبيدة عطا في شروحاتها وتعليقاتها على كتاب زبدة الفكرة، ص88 حاشية(1).

(3) يلاحظ أن هذه السياسة التي سار عليها بيبرس الأول في الإكثار من المماليك من عنصري المغول أو الأتراك والتقليل من العناصر الأخرى من غير بني جنسه، سار عليها فيما بعد السلطان الظاهر برقوق من جلس الجركس كسا، حيث رغب في المماليك من جنسه وأكثر من المماليك الجراكسة حتى صار منهم أكثر الأمراء والجند، وتقلص عدد المماليك الترك والمغول بالديار المصرية حتى لم يبق منهم إلا قليل. راجع القلقشندي: صبح الأعشى، ج4 ص458؛ العيني: السيف المهند، ص47. وقد سار على نفس هذه السياسة السلطان المؤيد شيخ المحمودي فيما بعد وهو من الجراكسة أيضاً. العيني: السيف المهند، ص47-48.

بهم آهلة المعالم، محمية الجوانب[1]". وأكد المقريزى ذلك بقوله " فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل[2]".

ولتأكيد الطابع المغولى أو القبجاقى للدولة المملوكية سياسياً وعسكرياً كما تؤكد المصادر المملوكية، فإن بيبرس لم يتورع من أن يسير على قاعدة ملوك التتار وغالب أحكام جنكيز خان من أمر اليسق والتورا [3]...، كما أنه أحب أن يسلك فى ملكه بالديار المصرية طريقة جنكيز خان هذا وأموره، ففعل ما أمكنه، ورتب فى سلطنته أشياء كثيرة، لم تكن قبله بديار مصر مثل ضرب البوقات، وتجديد الوظائف[4]". أى اقتباس قوانين الياسا السياسية والعسكرية وهو يضع الأسس السياسية والعسكرية للدولة المملوكية القائمة أساساً على أكتاف وسواعد المماليك المغول أو القبجاق، على النحو الذى أكدناه مراراً فى مقدمة هذه الدراسة وفى الجزء الخاص بالتأثيرات المغولية على التنظيمات العسكرية المملوكية. وهذه القوانين (الياسا) ظل المغول متمسكين بها حتى من اعتنق الإسلام منهم من قبيلة القبجاق الذهبية. ورغم أن أغلبها معارضاً للإسلام وأكد على ذلك القلقشندى فى ذلك النص الرائع " إن ملوك هذه الطائفة مع ظهور الإسلام فيهم وإقرارهم بالشهادتين مخالفون لأحكامها فى كثير من الأمور، واقفون مع ياسة جنكيز خان التى قررها لهم وقوف غيرهم من أتباعه، مع مؤاخذة بعضهم بعضاً أشد المؤاخذة فى الكذب والزنا ونبذ

---

(1) القلقشندى: صبح الأعشى، ج4 ص458.

(2) المقريزى: الخطط، ج2 ص221 سطر 18.

(3) أبو المحاسن: النجوم، ج7 ص182.

(4) أبو المحاسن: النجوم، ج6 ص268-269.

المواثيق والعهود[1] وقد جرت عادة ملوكهم إنهم إذا غضبوا على أحد من أتباعهم، أخذوا ماله وباعوا أولاده[2]".

وعلى الرغم من القيود الشديدة التي وضعها بيبرس الأول أمام المغول الوافدين أو المستأمنين من بني جنسه بحيث لا يتجاوز حدوداً معينة سواء في العدد المسموح به للالتحاق بالجيش أو حتى في الوظائف والرتب العسكرية التي يرقون إليها، بل حتى في الأماكن التي يتواجدوا فيها، بل أنه كان حريصاً على ألا يعين أحد منهم في أي منصب سياسي مثل نيابة السلطنة أو منصب الوزارة وغيرها، أو أن يمنحهم من النفوذ السياسي ما يسمح لهم فيما بعد من التدخل في شئون السلطنة وفرض آرائهم ورغباتهم على السلطان المملوكي، متأسياً بذلك بسياسة الصالح نجم الدين أيوب، ثم بسياسة سيده عز الدين أيبك التركماني، بل أن السياسة التي سار عليها بيبرس نفسه الذي استقبل الموجات الأولى من الوافدين المغول، جعلته يشعر بالقلق ويخشى من استيلاء هؤلاء الوافدين على السلطة في البلاد أو أن يدخلوا في صراع مرير من أجلها، وعبر عن خوفه الشديد من كثرة هجرات المغول لأمرائه قائلاً : أخشى أن يكون في مجيئهم من كل جهة ما يستراب منه[3]".

على أن هذه القيود التي وضعها بيبرس أمام عصبيته من المغول لم يكن يدور بخلده إنها سوف تنهار بعد وفاته، كما أن كل مخاوفه وشكوكه حول أطماع هؤلاء المماليك الوافدين من القبجاق في التناحر على السلطة والوثوب إلى عرش السلطنة قد تحققت أيضاً بعد موته، لأن هؤلاء الوافدية المماليك المغول الذين ارتقوا

---

(1) يلاحظ أن هذه الأمور أخذ بها المماليك المغول من أجل تسنم السلطة في مصر.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٧٤. ولدينا نص هام يؤكد استمرار تطبيق بعض قوانين الياسا في الدولة المملوكية بعد عهد بيبرس أي في عهد الأشرف خليل بن قلاوون ثم شقيقه الناصر محمد. راجع المقريزي: الخطط، ج٢ ص٤٠-٤١.

(3) المقريزي: السلوك، ج١ق٢ ص٥١٥.

مناصب عسكرية عديدة في عهد بيبرس كانوا يدركون لأنه بالرغم من أن بيبرس يريد صبغ البنية السياسية والعسكرية للدولة المملوكية بصبغة مغولية، إلا أنهم رأوا أن القيود التى وضعها أمامهم فيما يتعلق بالمناصب العسكرية والسياسية الكبرى فى الدولة سوف تحول دون إتمام أو تنفيذ هذه الخطوة التى بدأها باقتباس بعض قوانين الياسا التى تمرسوا عليها ويعرفونها جيداً فى أوطانهم الأصلية فى أواسط آسيا وذلك على نطاق واسع، بالإضافة إلى معارضتهم للمبدأ الجديد الذى وضعه بيبرس الذى كان أحد خشداشيتهم، فيما يتعلق بوراثة الحكم فى عقبيه، ولهذا فعند أول لحظة من وفاته وتوليه ابن السعيد بركه السلطنة، وعلى الرغم من أن بيبرس كان قد ولى أحد المماليك المغول القبجاق نائباً للسلطنة ويسمى بدر الدين بيليك الخازندار[١]، فإنهم قاموا بخلعه وتولية الابن الثانى لبيبرس وهو الأمير بدر الدين سلامش، وجعلوا من الأمير قلاوون الألفى المغولى القبجاقى الأصل، أتابكاً للسلطان الجديد الذى لقب بالملك العادل " وأدنى البحرية الصالحية وأحسن إليهم ورفع لهم الدرجات، وأعطاهم الطبلخانات، وولاهم النيابات[٢] ". على أن ذلك لم يستمر إلا شهوراً قليلة فقد عزل قلاوون السلطان بدر الدين سلامش سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م لينفرد هو بالسلطنة[٣]، وليؤسس أسرة حاكمة مغولية الجنس تتربع على عرش مصر منذ عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م حتى نهاية عصر دولة المماليك البحرية عام ٧٨٣هـ/١٣٨١م[٤]؛ وليؤكد بذلك سيادة العنصر المغولى على السلطة السياسية فى مصر، وليظهر أن

---

[١] بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية، ص٨٦؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٢٦٨-٢٦٩.

[٢] بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية، ص٩٠؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٢٦٩-٢٧٠، ٢٨٦-٢٨٧.

[٣] بيبرس المنصورى: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٥٥-١٥٦؛ التحفة الملوكية، ص٩١-٩٢؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٢٩٢-٢٩٣.

[٤] يستثنى من تلك الفترة عصر سلاطين كل من زين الدين كتبغا والمنصور لاجين، والمظفر ركن الدين بيبرس الثانى الجاشنكير.

هذه العناصر من المماليك المغول كانوا كأذرع الإخطبوط - إذا ما صح التعبير - فأطبقوا على مناصب الدولة المملوكية سياسياً وعسكرياً[1] ولم يسمحوا لأية عناصر أخرى غير مغولية قبجاقية أن ترتقى دست الحكم فى مصر طيلة عصر دولة المماليك البحرية. وهذا الرأى من جانبنا استناداً على ذلك النص الفريد الذى أورد فيه صاحب زبدة الفكرة وعدد فيه أسماء المماليك السلطانية المنصورية (نسبة إلى المنصور قلاوون) وعددهم ما يقرب من أربعين أميراً، وكان معظمهم من أصل مغولى قبجاقى وأويراتى بدءاً بحسام الدين طرنطاى وزين الدين كتبغا وحسام الدين لاجين وإنتهاءاً ببدر الدين بيليك الشحنة[2]، " ومنهم من ارتقى إلى المملكة وجلس على كرسى السلطنة، ومنهم من تولى النيابة بالممالك الشامية (أى نيابة السلطنة) والحصون الإسلامية ومنهم من تقدم إلى تقدمة الألوف وغير ذلك من المناصب التى أجملوا فيها السياسة وأحكموا أسباب الرياسة. ومن أجناده (أى أجناد المنصور قلاوون) أيضاً وخدامه من ارتقى إلى الإمرة بالطبلخانة ... إلخ[3] ".

ولقد صدق حدس بيبرس وما توقعه من استيلاء الوافدية على السلطة فى مصر، والتناحر فيما بينهم للوثوب إلى عرش السلطنة المملوكية، وتمثل ذلك فى قيامهم بقتل

---

(1) ارتقى هؤلاء المماليك ذوى الأصل المغولى الوظائف الهامة فى الدولة ذات الصفة السياسية والعسكرية مثل نيابة السلطنة والوزارة وغيرها على النحو الذى أكدته غالبية المصادر المملوكية فكان زين الدين كتبغا المغولى الأويراتى الأصل نائب السلطنة، وعلم الدين سنجر الشجاعى وزيراً ومدبراً، وركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار. راجع مثلاً بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية، ص١١٥،١١٧،١١٩؛ زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٧٧. كما كان حسام الدين طرنطاى نائباً للسلطنة بعد كتبغا وغيرهم كثير.

(2) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٥٦-١٥٧.

(3) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٥٧.

الأشرف خليل بن قلاوون أثناء خروجه للصيد عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م[١]. ثم تطورت الأحداث السياسية بعد ذلك بشكل سريع ومتلاحق وتنتهي بظهور شخصية مغولية جديدة على مسرح الأحداث السياسية هو الأمير زين الدين كتبغا المنصوري المغولي الأويراتي الأصل، وكان من سبي التتار في موقعة حمص الأولى[٢] والذي نودي به سلطاناً (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م)[٣]، والذي تبدأ بسلطنته عهداً لم يستمر إلا فترة قصيرة، يتميز بتأكيد الطابع المغولي للدولة المملوكية سياسياً وعسكرياً وشيوع ظاهرة الانتصار للعصبية المغولية، وهذا التيار قد تأكد عندما كان

---

[١] للاستزادة عن مقتل الأشرف خليل راجع بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٧٥-٢٧٦؛ التحفة الملوكية، ص١٣٦-١٣٧؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص١٦٧-١٦٩؛ المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٣٩؛ أيضاً د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص٢٠٢. معتمداً على مصادر.

[٢] سبق التعرض لاعتلاء هذا المغولي الأويراتي للعرش من قبل. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٨٥-٢٨٦؛ التحفة الملوكية، ص١٤٤؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص١٩٢-١٩٣. وكان أول ظهور لزين الدين كتبغا كمملوك للأمير قلاوون أحد قادة المماليك البحرية، وهناك ذكر له في نص صاحب زبدة الفكرة يشيد بدوره الكبير في معركة البيرة والفرات ضد المغول عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م حيث قام بقتل جنغر قائد القوات المغولية وكان لذلك أثره في انتصار السلطان بيبرس الأول على المغول في هذه الموقعة. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٢٨. هذا وقد نظم أحد الشعراء شعراً يتحدث فيه عن سيطرة هؤلاء المماليك المغول الأصل على حكم مصر قائلاً:

أيبك قطز يعقبو بيبرس[١] يا زين الدين ∴ بعدو قلاوون بعدو كتبغا لاجين.

بيبرس[٢] برقوق بعد شيخ ذو التبيين ∴ طَطَر بَرْسَبَاي جقمق صاحب التمكين.

أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص٣.

[١] هذا بيبرس العلائي البندقداري.

[٢] هذا بيبرس الجاشنكير المنصوري.

[٣] راجع الحاشية السابقة.

زين الدين كتبغا نائباً للسلطنة فى العهد الأول لسلطنة الناصر محمد بن قلاوون عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م عندما قام الصراع بين كتبغا والأمير علم الدين سنجر الشجاعى، وكان وزيراً ومدبراً للمملكه وأتابك العسكر[١]. وكان الشجاعى هذا يكره جنس المغول أو التتار القبجاق، ولم يكن هو مغولياً أو قبجاقى الأصل، وكان يدرك مدى أطماع كتبغا المغولى الأويراتى فى عرش السلطنة، ولذلك بدأ يدبر سراً لمؤامرة ليتخلص من كتبغا وأنصاره والقضاء على السيطرة المغولية على الحياة السياسية والعسكرية فى مصر وبلاد الشام، وبدأ يتخذ عدة خطوات لتنفيذ هذا وذلك باعتقال أكبر أعوان كتبغا من كبار مماليكه المحيطين به وبدهليزه وكانوا كلهم من المغول القبجاق ومنهم سيف الدين قفجاق المنصورى، وبدر الدين عبد الله السلحدار، وسيف الدين قبلاى، وركن الدين عمر أخوتمر وسيف الدين كرجى، وسيف الدين قرقجى أو طرقشى وغيرهم[٢]، كما استطاع أن يضم إلى جانبه بعض الخاصكية من المغول عن طريق الرشوة[٣]، وفرقة المماليك البرجية وهى الفرقة التى كونها المنصور قلاوون، وكانت تتكون من عناصر اللاظ والروس والجركس

---

[١] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٨٠؛ التحفة الملوكية، ص١٤٠؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٤٢. راجع ترجمة الشجاعى فى ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص١٨٨-١٨٩.

[٢] بلغ من سيطرة هؤلاء المغول على الحياة السياسية فى مصر إنهم كانوا يولون نيابات مدن الشام الهامة. ولدينا نص فى الخطط المقريزية يؤكد هذا عندما يشير إلى شخصية مغولية تدعى طينال، وكان أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون، وهو تترى الجنس، أقامه ساقياً ثم عمله حاجباً ثم أعطاه أمره دكتمر وجعله أمير مائة ألف، فباشر ذلك مدة، ثم أخرجه لنيابة طرابلس ثم نقله إلى نيابة صفد فمات بها عام ٧٤٣هـ. وكان له دار باسمه بخط الخراطين وله قيسارية باسمه أيضاً بسويقة أمير الجيوش. المقريزى: الخطط، ج٢ ص٧٦.

[٣] كان المنصور قلاوون قد جمع بعض أفراد من جنس الخطا والقبجاق بقاعة عرفت بالذهبية والزمردية وجعل منهم جمدارية وسقاه وسماهم خاصكية. المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢١٤ سطور٢٣-٢٤.

والأرمن وأسكنهم أبراج القلعة فعرفوا بالبرجية ثم عرفوا بالمماليك الجراكسة[١]، وذلك بأن أنفق فيهم الكثير من الأموال[٢] وانضم إليهم بعض المماليك السلطانية [٣]، وكانوا هؤلاء أيضاً كارهين لجنس المغول والخطا وغيرهم بسبب سيطرة هذه العناصر على الجيش وعلى دست الحكم. ويبدو أن هذه المؤامرة كانت على وشك أن تحقق نجاحاً، وتشهد مصر أفول سيطرة العنصر المغولي على الجيش والحكم، إلا أن أحد المقربين إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعي وأكبر أنصاره ويسمى قنغر[٤] أو قنقر[٥] أو قنقغ[٦] التترى القبجاقى الأصل

---

[١] بلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك وكون منهم فرق عسكرية وحرس خاص مثل الأوشاقية والجمقدارية (أو الجمدارية) والجاشنكيرية والسلاحدارية. المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢١٤، ٢٤١. وكان المنصور قلاوون يظن، كما ظن سيده الصالح نجم الدين أيوب أنهم يكونون عدة لأولاده من بعده، ولكن الأيام كشفت عن خطأه فى هذا الاجتهاد أيضاً فلم ينج من أولاده الثمانية الذين تسلطنوا من القتل أو الخلع إلا قلاوون نفسه، واستولت البرجية على الملك. وكان أول من تسلطن منهم الظاهر برقوق عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م. المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٤١-٢٤٤.

[٢] يقال إن علم الدين سنجر الشجاعى أنفق فيهم حوالى ثمانية آلاف دينار لاستمالتهم إلى جانبه. مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٠؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٤٢. ويلاحظ أن صاحب النجوم الزاهرة قد نقل روايته الخاصة بهذه الأحداث الهامة من تاريخ سلاطين المماليك، إلا أنه لم يشر إلى ذلك.

[٣] ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص١٧٩.

[٤] هكذا ورد اسمه فى بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٨٠؛ التحفة الملوكية، ص١٤٠. وفى ابن الفرات: سيف الدين قنغر التترى. وقيل قنقغ التترى. ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص١٧٩.

[٥] هكذا ورد اسمه فى مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٩.

[٦] ذكر على هذا النحو فى أبى المحاسن: النجوم، ج٨ ص٤٢.

(وكان ضمن جماعات المغول الوافدة إلى مصر من بلاد القبجاق فى عهد السلطان الظاهر بيبرس الأول)[1]، وكانت له " منزلة عظيمة عند الشجاعى، وكلمة مسموعة، وشفاعة مقبولة، وله إطلاع على أمور الدولة [2]"، والذى علم بأطراف وتفاصيل المؤامرة عن طريق أبنائه الخمسة الذين كانوا يعملون فى خدمة الشجاعى وكان أحدهم يدعى جاورش[3]، وكان أولاده (أى أولاد قنقر التترى) يأتوه بأخبار الدولة مفصلاً[4]، والذين كانوا بمثابة عيون له لدى الأمراء المماليك غير المغول الجنس، على النحو الذى أكده ابن الفرات[5]؛ والذين أدركوا مدى الخطر الذى يتهدد بنى جنسهم فى مصر ومكانتهم التى احتلوها من الناحية السياسية والعسكرية فى الدولة المملوكية، فسارع على الفور بإبلاغ زين الدين كتبغا، وأكدت المصادر ذلك بقولها " فحملته (أى قنغر التترى) الجنسية إلى أن أعلم كتبغا بما فى باطن الشجاعى فاحترز على نفسه وأعلم جماعة الأمراء بذلك[6]".

---

[1] مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٩؛ ابن الفرات: تاريخه، مجلد ٨ ص١٧٩؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٤٢.

[2] مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٩؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٤٢. وفى تاريخ ابن الفرات "فكان قنغر هذا من إلزام الأمير علم الدين سنجر الشجاعى وله عنده وعند غيره منزلة عظيمة وكلمة مسموعة وشفاعة لا ترد وإطلاع على أخبار الدولة. ابن الفرات: تاريخه، مجلد٨ ص١٧٩. وهذا تأكيد على مدى المكانة التى احتلتها الطوائف المغولية فى مصر فى عهد دولة المماليك البحرية.

[3] هكذا ورد اسمه فى بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٨٠؛ التحفة الملوكية، ص١٤٠؛ ابن الفرات: تاريخه، مجلد ٨ ص١٧٩.

[4] ابن الفرات: تاريخه، مجلد ٨ ص١٧٩.

[5] ابن الفرات: نفس المصدر والصفحة.

[6] مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٧. وأورد صاحب النجوم الزاهرة نفس هذه العبارة مع اختلاف طفيف فى بعض الألفاظ. أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٤٢.

إن كتبغا الذى أدرك مدى الخطر الذى يهدد بنى جنسه فى مصر، ومن معه من المماليك من أصل مغولى وغير مغولى ممن خشوا على أنفسهم حتى من الجراكسة البرجية، وكذلك بقية الخاصكية ومنهم مغول اشتروا بالمال[1] ، واستطاع كتبغا نفسه أن يصور هذا الوضع على حقيقته لبقية أمراء وقادة المماليك من أصل مغولى ليستميلهم إليه، فانضمت إليه غالب العسكر من الأمراء والمقدمين وانضم إليه التتار جميعهم وجماعة من الحلقة وجماعة من الأكراد[1] الشهرزورية ممن يكرهون الشجاعى[2]، واستطاعوا القضاء على هذه المؤامرة وقتل الشجاعى، وقام كتبغا باعتقال كل من أتهم بالاشتراك فى تلك المؤامرة وممن أيد الشجاعى من المماليك البرجية والخاصكية وأمراء الطباق[3] والتخلص منهم وذلك بإبعاد ونفى كل

---

(1) مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٠؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٤٣.

(2) مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٠؛ ابن الفرات: تاريخه، مجلد٨ ص١٨٠. والأكراد الشهرزورية نسبة إلى شهرزور إحدى جهات كردستان، وكانوا قد وفدوا فى جماعات كثيرة تقدر بثلاثة آلاف رجل بنسائهم وأطفالهم هرباً من جيوش هولاكو، حيث أنزلهم أمراء بنى أيوب فى المناطق الساحلية حتى استأمنهم الظاهر بيبرس الأول فيما بعد وسمح لهم بالحضور إلى القاهرة حيث أقطعهم الاقطاعات. وكانت علاقة بيبرس بهم طيبة وقوية منذ أن تزوج بإحدى نسائهم فى غزة. القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٣٧٣؛ المقريزى: السلوك، ج١ق٢ ص٤١١-٤١٢،٤١٤؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٠١ حوادث ٦٥٨هـ؛ أيضاً د. العرينى: المماليك، ص٧٢. والغريب أنهم لم يحفظوا للظاهر بيبرس هذا الجميل بل دبروا مؤامرة لقتله. المقريزى: السلوك، ج١ق٢ ص٤٩٣،٥٩٥.

(3) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٨٢؛ مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٩-٣١.

من كان يشعر أنه يهدد أوضاع بني جنسه في مصر من المغول القبجاق والأويراتية[1].

وعقب هذه الأحداث الصاخبة التي تمثل في حقيقتها صراعاً عصبياً بين المغول والجراكسة في مصر من أجل الوصول إلى دست الحكم في ظل سلطنة سلطان قاصر لم يتجاوز التاسعة من عمره، يطلع علينا صاحب كتاب تاريخ سلاطين المماليك بنص غريب وجديد مؤداه " ثم جددت الأيمان والعهود للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وخطب في سائر الجوامع للسلطان الملك الناصر ومن بعده لولي العهد الأمير زين الدين كتبغا[2] ". وهذا النص الذي يعتبر على جانب كبير من الأهمية، يثير الدهشة لأننا نجد لأول مرة في تاريخ قيام دولة المماليك بصفة عامة، وتاريخ دولة المماليك البحرية بصفة خاصة يتم تعيين نائب السلطنة وأتابك السلطان المملوكي ولياً للعهد، وهذا يؤكد مدى سيطرة المغول القوية على السلطة في البلاد، وتأثيرهم ونفوذهم السياسي القوي الذي يجعلهم يجبرون السلطان المملوكي القاصر على الاعتراف بنائب السلطنة وأتابكه كتبغا المغولي الأصل ليكون ولياً للعهد في آن واحد وهو الأمر الذي أكدته كل المصادر المملوكية[3]، وهذا الطغيان المغولي على الحياة السياسية لمصر المملوكية قد

---

[1] للاستزادة عن هذه الأحداث راجع بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٨١-٢٨٢؛ التحفة الملوكية، ص١٤٠-١٤١؛ ابن الفرات: تاريخه، مجلد٨ ص١٧٩-١٨٣؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٤٢-٤٦.

[2] مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣١ سطور٩-١٠.

[3] يقول ابن الفرات: "واستقر الأمير زين الدين كتبغا في نيابة السلطنة بالديار المصرية ولم يكن للملك الناصر من الأمر من شيء. وإنما جرى عليه اسم السلطنة وخطب باسمه على المنابر وضربت السكة باسمه، وأما غير ذلك من الأمر والنهي والولاية والعزل والإطلاق والمنع والتأمير وإعطاء الاقطاعات وغير ذلك من الأوامر فللأمير زين الدين كتبغا". ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص١٩٢-١٩٣.

اتضحت ملامحه أكثر من ذى قبل وبشكل سافر عندما قام زين الدين كتبغا ذلك المغولى الأويراتى بعزل الناصر محمد الصغير من السلطنة سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م وحل هو محله وذلك بتحريض من أكبر مستشاريه من الأمراء والقادة المغول الذين نصروه وأيدوه أثناء صراعه مع الشجاعى[١].

وهكذا أتى اعتلاء زين الدين كتبغا عرش السلطنة لتأكيد الطابع المغولى على البنية السياسية أو التكوين السياسى للدولة المملوكية، فلم يكتف بوضع كل أنصاره من كبار الأمراء من بنى جنسه فى أعلى المناصب السياسية والعسكرية فى الدولة المملوكية فحسب[٢]، بل ولكى يؤكد الصبغة المغولية للدولة المملوكية سياسياً وعسكرياً واجتماعياً، قام باستقدام عشرة آلاف بيت من مغول الأويرات أو العويراتية من بنى جنسه عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م على رأسهم طرغاى وككتاى[٣]، حيث أنزل جزءاً منهم فى بلاد الساحل الشامى، واستقدم أعداد منهم إلى مصر بنسائهم وأطفالهم، وكان كتبغا يريد الاستعانة بهم ليكونوا عوناً له ضد خصومه السياسيين فبالغ فى احترامهم وإكرامهم، وأنعم على مقدمهم بأمره طبلخانة، وأعطاهم الإقطاعيات والرواتب، وأنزلهم بمنطقة الحسينية[٤]. ولم يفعل مثلما فعل بيبرس الأول من قبل مع مغول القبجاق عندما أنزلهم فى أماكن معينة محددة فى مصر خصصها لهم وعزلهم عن السكان لئلا يختلطوا بهم، وكان هذا ذكاء من

---

(١) للاستزادة عن الظروف التى أحاطت بتولية كتبغا السلطنة راجع بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٨٥-٢٨٦؛ التحفة الملوكية، ص١٤٤-١٤٥؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص١٩٢-١٩٣؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٤٩-٥٠.

(٢) راجع مثلاً بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٨٦؛ مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٣؛ ابن الفرات: تاريخه، مجلد٨ ص١٩٣-١٩٤؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٥٦.

(٣) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص١٤٦.

(٤) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢.

كتبغا، فكان يهدف من عدم إنزالهم بأحياء خاصة بهم أن يفتتن بهم جميع طبقات السكان في مصر: قادة وأمراء ومن عامة الناس ويختلطوا بهم فى محاولة لنشر العادات والتقاليد المغولية الأويراتية داخل مصر ولتأكيد الصبغة المغولية للدولة المملوكية من الناحية الاجتماعية أيضاً، وأكدت ذلك المصادر المملوكية وعلى رأسها الخطط المقريزية قائلة " فأفتتن بهم الأمراء وتنافسوا فى أولادهم من الذكور والإناث، واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم وتعشقوهم لدرجة أنه أرسلوا إلى البلاد الشامية واستدعوا طائفة منهم كبيرة فتكاثر نسلهم فى القاهرة(1) "، ولذلك أعطاهم الكثير من الحرية رغم أن معظمهم كانوا وثنيين " فشق ذلك على الناس وبلوا مع ذلك منهم بأنواع من البلاء لسوء أخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم(2)"، خاصة وأنه تصادف وصول هذه الجماعات جنباً إلى جنب مع ارتقاء زين الدين كتبغا عرش السلطنة المملوكية انخفاض النيل واشتداد الغلاء وانتشار المجاعات وارتفاع الأسعار وانتشار الوباء فى مصر(3) " لدرجة دفعت أحد الأدباء وهو شمس الدين محمد بن دينار لأن ينظم شعراً يعبر فيه عن هذه الأمور ويؤكد فيه مدى التأثير المغولى على الدولة المملوكية سياسياً واجتماعياً، وتأكيداً لوجهات النظر السابقة، قائلاً:

ربنا أكشف عنا العذاب فإنا ... قد تلفنا فى الدولة المغلية
جاءنا المغل والغلا فأنسلقنا ... وانطبخنا فى الدولة المغلية(4)

---

(1) المقريزى: الخطط، ج2 ص22؛ أيضاً ابن الفرات: تاريخه، مجلد8 ص205.

(2) المقريزى: الخطط، ج2 ص22. وسوف نتحدث عن المؤثرات المغولية على الحياة الاجتماعية فى مصر المملوكية فى موضعها المناسب من هذا البحث.

(3) المقريزى: الخطط، ج2 ص22. للاستزادة عن هذه المجاعات والغلاء راجع ابن الفرات: تاريخه، ج8 ص208-211 حوادث سنة 695هـ/1296م.

(4) المقريزى: الخطط، ج2 ص22 سطور 32-33.

على أن ارتقاء كتبغا عرش السلطنة وإظهاره الاستبداد المطلق في حكم الدولة المملوكية ومحاباته التي لا حدود لها لبني جنسه من أمراء وقادة الأويراتية والذي بدأ يحيطهم به كحرس خاص ومستشارين له، أثار مخاوف خشداشيته وكان معظمهم من أصل مغولي قفجاقي ومن أكثر المقربين لديه، وبدأوا يظهرون قلقهم لشكهم في أن كتبغا من الممكن أن ينقلب عليهم في أي وقت ويتخلص منهم وعلى رأسهم المنصور حسام الدين لاجين[1] الذي كان أحد المحرضين الرئيسيين لكتبغا لإقصاء السلطان الصبي الناصر محمد وتوليه العرش بدله، بل أنه لعب دوراً كبيراً في رفعه إلى العرش المملوكي، مما جعلهم يتفقون على خلعه وقاموا بما يمكن تسميته انقلاب عسكري أو سياسي Coup d'état ضده انتهى بالإطاحة به وتولية المنصور لاجين منصب السلطنة[2] عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م.

وعلى الرغم من أن السلطان لاجين عمل على تقليص نفوذ المغول الأويراتية وذلك بالقبض على زعمائهم وعلى رأسهم طرغاي وبعث بهم إلى الإسكندرية حيث سجنهم وقتلهم، وفرق جميع الأويراتية على الأمراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم[3]، إلا أن الأويرات ظلوا قوة فعالة في الجيش المملوكي[4].

---

(1) على الرغم من أن المصادر التي لدينا لم توضح أصل المنصور لاجين إلا أنه يلاحظ أنه لم يكن مغولياً مثل خشداشيته بل يبدو أنه كان من الجراكسة الذين جلبهم المنصور قلاوون إلى مصر وجعل منهم سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية وكان لاجين من الأوشاقية. ابن الفرات: تاريخه، مجلد٨ ص٢٢٢؛ المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢١٤.

(2) للاستزادة عن المؤامرة التي دبرت للإطاحة بكتبغا وقتله راجع بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص١٤٧-١٤٨؛ زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٩٣-٢٩٦؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص٢٢١-٢٢٣؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٨٥-٨٧؛ أيضاً د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص٢٠٥-٢٠٧.

(3) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٣.

(4) ابن أيبك الدواداري: الدر الفاخر، ص١٥.

ورغم استعادة الناصر محمد بن قلاوون - الذى كان منفياً بالكرك - لعرشه فيما بعد، وعمل على التخلص من الأويراتية بطردهم من خدمته ومن مصر نهائياً، إلا أن ذلك لم يمنع من استمرار التأثير والنفوذ السياسى والعسكرى للعناصر المغولية الأخرى على الدولة المملوكية إلى نهاية عصر دولة المماليك البحرية.

ونخلص مما سبق، واعتماداً على ما ذكرته كل المصادر المملوكية المعاصرة أو القريبة من الفترة موضوع الدراسة والمتأخرة عنها، من حقائق ذكرناها آنفاً، أن دولة المماليك البحرية أو الأولى - على حد تعبير أحد المؤرخين المحدثين الأجلاء[1] - كانت فى حقيقتها دولة مغولية الصبغة والطابع من الناحيتين السياسية والعسكرية بشكل خاص بحيث يمكن أن يطلق عليها اسم " الدولة أو السلطنة المملوكية المغولية الأولى فى مصر وبلاد الشام " وتشمل الفترة من عهد شجر الدر وسلطنة عز الدين أيبك القبجاقى الأصل أو سيف الدين قطز المغولى الأصل حتى نهاية سلطنة الصالح صلاح الدين حاجى بن شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون (عام ٧٨٣-٧٨٤هـ/١٣٨٢-١٣٨٣م)، ممثلين فى سلاطينها وعلى رأسهم بيبرس الأول البندقدارى والذى اتخذ خطوات تمثل سياسة تهدف إلى إكساب النظم العسكرية والسياسية الطابع المغولى القبجاقى، بالإضافة إلى نواب سلاطينها وقادة جيوشها ووزرائها وحاشية السلاطين المماليك وحتى من تولى القيادة السياسية ومعظم المناصب بها كانوا من المغول سواء قبجاق أو مغول فارس، ممن اعتنقوا الإسلام، أو مغول أويراتية سواء ممن اعتنق منهم الإسلام (مثل كتبغا) أو ممن ظل على وثنيته أو عقيدته البوذية (الجماعات الأويراتية الوافدة من نفس جنس السلطان كتبغا) وهم الذين أكدوا الطابع المغولى على الحياة السياسية والعسكرية فى فترة سلطنة كتبغا، فهم المحركون للأحداث والمسيطرون على مقدرات الأمور سياسياً وعسكرياً، بل إن معظم المعارك التى خاضتها مصر

---

[1] د. أحمد مختار العبادى: قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، إسكندرية ١٩٨٢م.

المملوكية ضد الصليبيين فى بلاد الشام ومصر بدءاً بمعركة المنصورة وفارسكور، وضد المغول بدءاً بمعركة عين جالوت والانتصارات العديدة المتلاحقة، تحققت على أيدى سلاطين أو قادة عسكريين للجيوش المملوكية من أصل مغولى قبجاقى أو أويراتى أو من عناصر مغولية أخرى. ووجهة النظر هذه تعتمد على الأدلة والأسانيد المنطقية القوية المستندة على نصوص المصادر المملوكية أو الوثائق التى احتوتها دفتى هذه المصادر والأمر الذى زاده القلقشندى أكثر وضوحاً بقوله " ومنهم (أى المماليك) معظم جيش الديار المصرية من ملوكها وأمرائها وجندها، ومنهم أقمار مواكبها، وصدور مجالسها وزعماء جيوشها، وعظماء أرضها، وحمد الإسلام مواقفهم فى حماية الدين – وكفى بالنصرة الأولى فى يوم عين جالوت فى كسر الملك المظفر قطز (المغولى الأصل) صاحب مصر إذ ذاك فى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م عساكر هولاكو ملك التتر بعد أن عجز عنهم عساكر الأقطار[١] ".

وهناك رأى مستنير لأحد المؤرخين المحدثين الأجلاء يذكر فيه أن تسمية الترك أو لفظ الترك هو تسمية خاطئة لدولة المماليك الأولى فى مصر[٢]، وبذلك فإن سيادته يعارض مسميات المصادر المملوكية التى تطلق على هذه الدولة مسمى الدولة التركية وعلى سلاطينها سلاطين الأتراك[٣]. وطبقاً لهذا الرأى واستناداً على

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٨. يلاحظ أننا اضطررنا هنا إلى تكرار نص القلقشندى هذا أكثر من مرة فى أكثر من موضع من هذه الدراسة حسبما تقتضى جزئياته ولأنه نص من الأهمية بمكان بالنسبة لكل جزئيات هذه الدراسة.

(٢) ذلك رأى الدكتور السيد الباز العرينى: المماليك، ص٥٤. وراجع الأدلة والشواهد التى بنى عليه رأيه فى صفحتى ٥٤-٥٥ والحواشى.

(٣) مثل بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية فى الدولة التركية، ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المسمى الدرة الذكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ هارمان. القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م. كما أن المقريزى فى معظم مؤلفاته يطلق عليهم=

ما ذكرناه من قبل طبقاً لنصوص المصادر المملوكية، فإن تاريخ مصر في هذه الفترة (النصف الثاني من القرن السابع الهجري/النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي حتى أواخر القرن الثامن الهجري/أواخر القرن الرابع عشر الميلادي) جديراً بأن يؤرخ تحت اسم "عصر دولة المماليك المغول القبجاق الأولى" سياسياً وحضارياً، كما أن تاريخ مصر المملوكية أثناء الفترة التي ارتقى فيها كتبغا ذلك المغولي الأويراتي عرش السلطنة (٦٩٤-٦٩٦هـ) يمكن أن يؤرخ تحت اسم "فترة المماليك المغول الأويرات" حيث ظهر التأثير المغولي الأويراتي بشكل كبير على الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية في مصر، وحتى الأدب المصري المملوكي في هذه الفترة من تاريخ المماليك البحرية قد أكد على مدى التأثيرات المغولية على الحياة السياسية في مصر المملوكية، وبصفة خاصة، في عهد السلطان العادل كتبغا، متمثلاً في تلك القصيدة التي نظمها الشاعر المصري شمس الدين بن دينار والتي ذكرناها آنفاً[1]، ولذلك فنحن نعتبر دولة المماليك الأولى في مصر إنما هي تمثل امتداداً لدولة مغول القبجاق أو القبيلة الذهبية التي قامت في جنوب روسيا وبالتحديد في منطقة السهوب الممتدة من أراضي الفولجا الوسطى والعليا حتى منطقة شمال شرقي البحر الأسود، بل لا نبالغ أيضاً، طبقاً للحقائق المثبتة من قبل، أن مغول القبجاق بروسيا كونوا لهم دولة أو سلطنة ضخمة أو فرع آخر لدولتهم في مصر وبلاد الشام عن طريق أبنائهم الذين كانوا يصدرون سنوياً إلى مصر، بالإضافة إلى العناصر الأخرى من المغول التي كانت تذهب هناك تحت وطأة الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية الخاصة بأوطانها في وسط آسيا وشرق أوربا، أولئك العبيد الذين كانوا يمثلون الدماء الفياضة والمتدفقة التي كانت تجري

=دائماً سلاطين الدولة التركية أو الملوك الأتراك. راجع المقريزي: الخطط، ج٢ ص٩٨، ٢٢٠، ٢٣٦.

(١) توجد أبيات من هذه القصيدة في الخطط المقريزية، ج٢ ص٢٢.

فى عروق الجيش المصرى الأيوبى ثم المملوكى، وارتفع مقامهم إلى القمة، وتسنموا السلطة السياسية والعسكرية فى مصر والشام تحت اسم "المماليك". وهؤلاء المماليك المغول الذين جلبوا إلى مصر أو هاجروا إليها، جاءوا بأسرهم يحملون على أكتافهم وسواعدهم عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية ولغاتهم الخاصة التى تعصبوا لها وتمسكوا بها بالإضافة إلى قوانينهم (الياسا الكبرى)، ومما اعتادوا عليه من نظم عسكرية وسياسية فى أوطانهم الأصلية، وحاولوا بل ونجحوا فى إكساب أو صبغ الدولة المملوكية التى أسسوها بالطابع والمؤثرات المغولية فى كل الجوانب السياسية والحضارية على النحو الذى أوضحناه من قبل وسنوضحه فى مواضع عديدة من هذه الدراسة.

٣- التأثيرات المغولية على الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر دولة المماليك البحرية:

لم يقتصر التأثير المغولى على الدولة المملوكية على الجوانب العسكرية والسياسية بل امتد ليشمل المجتمع المملوكى نفسه من حيث العادات والتقاليد وبعض الظواهر الاجتماعية المغولية التى حملها الوافدون على أكتافهم ووضعوها داخل مصر وبلاد الشام وبالتحديد مع كثرة نزوح هؤلاء الوافدية إلى مصر فى عهد بيبرس الأول البندقدارى حيث بلغ عددهم ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس بنسائهم وأطفالهم على النحو الذى أكدته المصادر المملوكية[١]. وقد عبر عمدة مؤرخى مصر الإسلامية عن مدى التأثير المغولى على المجتمع المصرى فى عصر دولة المماليك القبجاق البحرية قائلاً "فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم[٢]".

---

[١] أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٩ سطر٤.

[٢] المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢١ سطر١٨.

وعلى الرغم من القيود الشديدة التى فرضها بيبرس من ناحية الأماكن أو الأحياء التى يتواجد بها هؤلاء المغول الوافدة، بل أنه عمل على عزلهم فى أحياء خاصة بهم فى القاهرة وبنى لهم حياً كاملاً بمساكنه فى منطقة اللوق أو باب اللوق[1] وذلك فى شكل مستوطنة أو ليكون منهم ما يسمى أو مايشبه الجيتو (أى أقلية) منعزلة عن بقية طبقات المجتمع المملوكى، إلا أن ذلك لم يمنع من تسرب أو انتشار الكثير من العادات والتقاليد المغولية التى تمسك بها هؤلاء الوافدية، رغم اعتناقهم الإسلام، والتى قد تتعارض مع الشريعة الإسلامية نفسها. ولا ننسى الإشارة إلى الجاريات المغوليات القبجاقيات اللائى كن يرسلن ضمن الهدايا المرسلة من خانات القبيلة الذهبية وبصفة خاصة فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى أثناء السفارات أو البعوث المتبادلة بين خانات مغول القفجاق المسلمين وسلاطين المماليك مثل تلك السفارات التى وصلت إلى مصر عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م ووصل صحبتها جوار كثيرة ومماليك وهدية سنية ... وكان عدة المماليك أربعمائة مملوك ومائتى جارية[2]. أو تلك السفارة التى أرسلها طقطاى (توقتو) خان مغول القبيلة الذهبية إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون أيضاً سنة ٧٢٣هـ/١٣١٣م وكان فى صحبتها ثمانين مملوكاً تركياً وعشرين جارية كالبدور الطلع[3]. أو الجاريات التى كان يطلبهن السلطان الناصر محمد بن قلاوون من خانات مغول القبجاق أنفسهم[4]. ولا شك أن هذه الجاريات قد حملن الكثير من العادات والتقاليد المغولية القبجاقية التى وضعنها داخل أسوار وغرف القصور السلطانية وكذلك بيوت الأمراء.

---

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٧؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٧-١١٨.

(2) ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص١٢٨.

(3) ابن أيبك الدوادارى: المصدر السابق، ص٢٨١.

(4) ابن أيبك الدوادارى: المصدر السابق، ص٢٨١.

وكان أول من تأثر بهذه العادات المغولية هم سلاطين المماليك أنفسهم الذين كانوا هم أيضاً قد تربوا أو نشئوا فى كنفها فى بلاد القبجاق مثل أكل لحوم الخيل في الحفلات والمناسبات التى كان يقيمها سلاطين المماليك[1]. وكان لحم الخيل هو الطعام الرئيسى المفضل لدى المغول، كما أكد بذلك ابن بطوطة أثناء رحلته فى بلاد الأوزبك وشرق أوربا[2] أى فى بلاد قبيلة القبجاق الذهبية التى سبق واعتنق أفرادها الإسلام فى عهد بركه خان، ويبدو أن التأثير المغولى على المجتمع المملوكي لم يقتصر فقط على بعض الأطعمة المغولية بل امتد ليشمل صناعة بعض أنواع من الخمر من لبن الخيل بصفة خاصة والتى أقبل سلاطين وأمراء المماليك على تناولها أيضاً فى المناسبات وغير المناسبات[3]. وهذا النوع من الشراب عرف لدى مصادر العصر المملوكي باسم "القمز"[4]، فى حين يسميه مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذانى "القميز"[5] وذلك فى نص روايته عن الاحتفال بجلوس منكو قاآن بن تولوى بن جنكيز خان على سرير الخانية[6]. ويسميه أحد المؤرخين الأجلاء

---

[1] د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص١٥٤. معتمداً على مصادر، لم يذكرها. وللاستزادة عن الأطعمة التى كان يأكلها المغول فى بلادهم (منغوليا ثم الصين وبلاد القبجاق) راجع ابن بطوطه: رحلته، ص٣٣٩، ٣٤١، أيضاً د. سعد الغامدى: جوانب من حياة المغول المعيشية، مجلة كلية آداب الإسكندرية مجلد ٣٧ عام ١٩٨٩، ص١٣٥-١٣٨. معتمداً فى ذلك على نص وليم ربرك سفير الملك لويس التاسع إلى باتو بن جوجى خان قبيلة الأوردو الذهبية.

[2] ابن بطوطه: رحلته، ص٣٣٩، ٣٤١؛ أيضاً د. سعيد الغامدى: جوانب من حياة المغول، مجلة آداب إسكندرية عدد ٣٧، ص١٣٨. معتمداً على نص ابن بطوطه ووليم ربرك.

[3] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٢٨-١٢٩، ٢٧٢؛ ابن بطوطه: رحلته، ص٣٣٩، ٣٤٢؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٧ ص١٦٢.

[4] ابن بطوطه: رحلته، ص٣٣٩؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٢٨؛ ابن الفرات: تاريخه، مجلد٧ ص١٦٢.

[5] رشيد الدين: جامع التواريخ، ص٢٠٤.

[6] رشيد الدين: نفس المصدر والصفحة.

المحدثين اللبن الحامض[1]. ويذكر ابن بطوطة أنه كان الشراب الرئيسي المفضل لدى مغول بلاد الأوزبك، برغم اعتناقهم الإسلام، وكانوا يحرصون على تناوله عقب طعامهم، بل إن ابن بطوطة نفسه قد ذاقه وتناوله ولكنه ذكر "أنه لا خير فيه"[2]. وقد ذكره الرحالة البندقي ماركو بولو Marco Polo أثناء رحلته إلى بلاد خان المغول عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م[3]. ويذكر سفير الملك لويس التاسع إلى المغول الراهب وليم ربرك William Rubruck أن هذا الشراب هو الشراب المفضل لدى السواد الأعظم من المغول، وكان يطلق عليه عندهم اسم الكزمس Kuzmos أو القرا-كزمس Qara kuzmos أي شراب الكزمس الأسود، وطريقة صنعه أن توضع ألبان الأفراس في قراب، ثم تخض بشدة وتترك حتى يتخمر. ويذكر وليم ربرك أنه شراب ممتاز منشط جداً، إلا أنه يلذع لسان المرء أثناء شربه فله طعم كطعم الخل، ويحدث عند شاربه نشوة روحية وعقلية عجيبتين[4]. ويبدو أن المغول الوافدين إلى مصر في عهد بيبرس قد نقلوا طريقة عمل القميز أو القمز إلى مصر. وكان سلاطين المماليك وأمراؤهم أول من أقبل على شرب خمير اللبن هذا، وكيف

---

(1) د. يحيى الخشاب: مقدمته لكتاب جامع التواريخ لرشيد الدين، ص٨. ويذكر د. حسين مؤنس أنه شراب مسكر وهو البيرة غير المصفاه. د. حسين مؤنس: ابن بطوطه ورحلاته، ط. دار المعارف بمصر ١٩٨٠، ص١٣٧. ويعرفه د. فؤاد الصياد بأنه خمير اللبن. د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٣٠.

(2) ابن بطوطه: رحلته، ص٣٣٩،٣٤١.

(3) ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسدن وترجمها للعربية عبد العزيز جاويد، ط. الهيئة المصرية للكتاب ١٩٥٧، ص١٥٢.

(4) مقتطفات من كتاب وليم الربركي كما وردت في مقال د. سعد الغامدي: جوانب من حياة المغول المعيشية، مجلة آداب إسكندرية، مجلد٣٧ ص١٣٩-١٤٠. وكان هذا الراهب مرسل من قبل لويس التاسع إلى خانات المغول في قراقورم. د. سعد الغامدي: جوانب، مجلة آداب إسكندرية، مجلد٣٧ ص١٣٣.

لا وهم أساساً من مغول القبجاق الذين اعتادوا على تناوله قبل جلبهم إلى مصر، إذ نجد أول ذكر له في عهد السلطان بيبرس عندما تشير رواية صاحب زبدة الفكرة أن بيبرس بعد انتصاره على التتار في معركتي البيرة والفرات عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م احتفل بمناسبة هذا الانتصار في قلعته " وجلس لشرب القمز بحضرة أمرائه وأعيان أعوانه وخالص خلصاءه"(١). كما قام بهذه المناسبة بأن أنعم على معظم المشاركين في هذه المعارك من الأمراء والقادة بكثير من الإنعامات واستمروا بعدها في تناول القمز(٢). ولم يقتصر الأمر على فترة السلطان بيبرس فيما يتعلق بظاهرة شرب القمز، بل امتد إلى عهود من تلاه من السلاطين حيث تشير المصادر إلى استمرار تناول هذا الشراب المغولي في عهد كل من المنصور سيف الدين قلاوون(٣) وفي عهد ابنه الأشرف خليل(٤).

ويلاحظ وجود بعض العادات المغولية التي نفرت منها طبقات المجتمع المصري في العهد المملوكي ولم يقبلوا عليها مثل تلك التي حملها معهم المغول الأويراتية أو العويراتية من الذين وفدوا إلى مصر عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م أثناء سلطنة زين الدين كتبغا المغولي الأويراتي الأصل، وظلوا على وثنيتهم، وأثارت بسلوكها باقي الأمراء وطبقات المجتمع الأخرى، إذ لم يصم الأويراتية شهر رمضان(٥)، وكانوا يأكلون الخيل المقتولة بالضرب لا بالذبح بمعنى أنهم كانوا لا يذبحون الخيل ذبيحة ولا نحراً بل يربطون الفرس ويضربونه على وجهه حتى يموت فيأكلونه بما

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٢٨.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٢٩.

(٣) ابن الفرات: تاريخه، مجلد٧ ص١٦٢ سطر١٧.

(٤) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٧٢.

(٥) ابن الفرات: تاريخه، مجلد٨ ص٢٠٤؛ المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٢.

اعتادوا عليه في بلادهم، فأنف الأمراء من الجلوس معهم بباب القلة في الخدمة السلطانية وعظم على الناس إكرامهم[1].

ويبدو أن التأثير المغولي على المجتمع المملوكي لم يقتصر فقط على الأطعمة والأشربة، بل امتد أيضاً إلى الأزياء التي كان يرتديها المماليك من رجال ونساء خاصة في المناسبات والاحتفالات الدينية أو الاجتماعية الأخرى، وقد سبق التحدث بالتفصيل عن التأثير المغولي على الأزياء والملابس التي كان يرتديها قادة وعسكر الجيش المملوكي أي طبقة الأرستقراطية العسكرية المملوكية، وهذا – بجانب كونه تأثيراً مغولياً عسكرياً – له أيضاً شق اجتماعي، ولكننا سنسلط بعض الأضواء وسنعطي بعض الأمثلة الخاصة بالتأثير المغولي على الملابس غير العسكرية. فلدينا رواية متأخرة قليلاً ترجع إلى سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م في عهد السلطان الأشرف قانصوه الغوري في عصر المماليك الجراكسة، تشير إلى أن طوائف الغلمان الأوجاقية (ربما تحريف لكلمة الأوشاقية) قد ساروا في موكب شعبي صحبة الوزير من القلعة في إحدى المناسبات وهم يرتدون المعاطف أو الأقبية التترية المصنوعة من الحرير الأصفر[2]. وعلى الرغم من أن هذا المثل يعتبر متأخراً عن الفترة موضوع الدراسة إلا أن وجود مثل هذه الأزياء المغولية في عصر دولة المماليك الجراكسة، إنما هو دليل على وجودها في عصر دولة المماليك المغول البحرية على أساس أن الجراكسة كانوا أحد عناصر الجنس التركي العام وكانت موطنهم المرتفعات الجنوبية من بلاد القبجاق، أي أنهم كانوا أبناء عمومة

---

(1) ابن الفرات: تاريخه، مجلد٨ ص٢٠٤. وراجع ما كتب عن طعام المجتمع المغولي في د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٢٩-٢٣٠؛ د. سعد الغامدي: جوانب من حياة المغول، مجلة آداب إسكندرية، مجلد٣٧. معتمداً على مصادر.

(2) ابن أياس: بدائع الزهور، ج٤ ص١٠٤؛ أيضاً ماير: الملابس المملوكية، ص٤٢. معتمداً على ابن أياس.

لمغول القبجاق، إلا أنهم كانوا كما تذكر المصادر الإسلامية أعداء ألداء لأتراك ومغول القبجاق والذين كانوا يحرصون عندما تسنموا السلطة فى مصر فيما يعرف بدولة المماليك الجراكسة، بعد أن انتزعوا السلطة من المماليك القبجاق بعد أن زالت دولتهم، كانوا يحرصون على القضاء على كل مظاهر التأثيرات والعادات التى جلبها المماليك ذو الأصل المغولى والذين كونوا دولة المماليك البحرية، إلا أن العديد من المؤثرات أو العادات المغولية كانت موجودة بالفعل فى عصر دولة المماليك البحرية، واستمرت فى عصرهم فيما بعد. ولدينا مثال آخر، يؤكد مدى التأثير المغولى على الملابس المملوكية، متمثلاً فى السراقوج التترى وهو أحد ألبسه الرأس والمأخوذ عن قبيلة القفجاق المغولية الذهبية والتى كان يرتديها جند وقادة الجيش المملوكى[1]. وكان هذا السراقوج عبارة عن قلنسوة لها شكل مخروطى طويل بحافة مقلوبة إلى أعلى كتلك التى توجد فى الصورة الفريدة لمخطوط جالن فى المكتبة القومية بفيينا أو فى مخطوط الجزرى فى مكتبة البودليان بأكسفورد[2]. ويبدو أن هذه القلنسوة التترية قد انتشرت أيضاً بين عامة الناس بجانب الأمراء والسلاطين فى المجتمع المملوكى، وعلى الرغم من صمت غالبية المصادر المملوكية حول استمرار استخدام القلنسوة التترية باستثناء نص ابن الفرات المذكور آنفاً، مما يوحى بأن هذا السراقوج التترى قد اختفى من عالم الموضة أو الأزياء المملوكية خلال عصر المماليك البحرية، إلا أنه عاد إلى الظهور فى عصر دولة المماليك الجراكسة كلباس رأس للسيدات فى المجتمع المملوكى[3].

---

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٩٦؛ ابن الفرات: تاريخه، مجلد٨ ص١٥٥. راجع النص الذى ذكره المقريزى حول الزى التترى الذى كان يرتديه خاصكية السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فرحاً بمولد أحد أبناؤه. المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٣ سطور١-٢.

(2) ماير: الملابس المملوكية، ص٥٦-٥٧.

(3) ماير: الملابس المملوكية، ص٥٧. معتمداً على مراجع.

ومما يثير الدهشة أن التأثير المغولي علـى المجتمـع المملوكـى قـد اتضـح حتى فى موضة أو طريقة تصفيف الشعر لـدى سلاطين الممـاليك وأمرائهـم، فلدينـا نص فى السلوك يشير إلى أن سلاطين وأمراء الممـاليك البحريـة - كـالمغول بوجـه عام - قد اعتادوا ترك شعورهم ترسل طويلة بإرخاء ذوائب الشعور[1] حتى عصـر السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى عهده الثالث، الذى يبدو أنه أبطل هـذه المـودة عندمـا قـام بحلـق شـعر رأسـه بعـد عودتـه مـن تأديـة فريضـة الحـج عـام ٧١٥هـ/١٣١٥م[2]. ويرجح أن السلاطين الذين أتـوا بعده سـاروا علـى نفس النمط ومعهم أمرائهم.

ونحن لا نعرف إذا كان المغول قد عرفـوا فن الغنـاء والموسـيقى أو أن الجوارى المغوليات اللائى كن يفدن إلى مصر فـى العصـر المملوكـى ضمـن هدايـا مرسلة من خانات القبيلة الذهبية إلـى السـلطان المملوكـى خاصـة فـى عهـد النـاصر محمد بن قـلاوون[3] قـد حملـن معهـن فـن الغنـاء والموسـيقى المغوليين إلـى مصـر خاصة وأن الجوارى كن يمثلن رسل الفن فى الأماكن اللائى يفدن إليها. ويلاحظ أنه كان ضمن الهدايا المرسلة من أبى سعيد إيلخان مغول فارس إلـى السـلطان النـاصر محمد عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م مغنيتين مغوليتين[4] مما يؤكد وجهة النظر السابقة حـول انتقال فن الغنـاء أو الموسـيقى المغوليين إلـى مصـر. وعلـى الرغـم مـن أن غالبيـة المصادر المملوكية ومصادر المغول لم تشر إلى وجود فـن الغنـاء والموسـيقى لـدى

---

[1] المقريزى: السلوك، ج٢ ص١٤٨ سطور١٦-٢٠.

[2] المقريـزى: السـلوك، ج٢ ص١٤٨؛ أيضـاً مـاير: الملابـس المملوكيـة، ص٣٣-٣٤. علـى أن المقريـزى يذكـر أن سـلاطين الممـاليك وأمراؤهـم كـانت شـعورهم مضفـورة مـدلاة بدبوقـة. المقريزى: الخطط، ج٢ ص٩٨.

[3] ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص١٢٨،٢٨١،٣٠٢.

[4] ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص٣٦١.

المغول خاصة مغول قبائل القبجاق المسلمة مما يوحى بعدم وجود تأثير مغولى على فن الغناء والموسيقى فى العصر المملوكى، كما أن الدراسات الحديثة التى تناولت فن الطرب فى العصر المملوكى لم تشر إلى وجود مثل هذه التأثيرات أو حتى إلى وجود مغنيات من أصل مغولى ضمن جوارى مغول القبجاق ممن برعن فى فن الطرب[1]، إلا أن هناك نصاً أورده ابن بطوطه أثناء رحلته فى بلاد الأوزبك (خانات القبيلة الذهبية) وشرق أوربا وبالتحديد أثناء انتقاله من القرم إلى محلة السلطان أوزبك خان مغول القبيلة الذهبية عندما نزل بمدينة تسمى آراق[2]، ونزل ضيفاً على أمير المدينة وهناك سمع وشاهد ألواناً من الغناء والطرب المغولى القبجاقى[3]. واستناداً على هذا النص، ونص ابن أيبك الدوادارى من قبل نرجح أن الجوارى المغوليات اللائى كن يصدرن من بلاد الأوزبك خان إلى مصر كن بارعات فى فن الغناء والموسيقى وحملوه معهن لكى يضعنه أو يتغنين به داخل قصور السلاطين والأمراء المماليك فى مصر.

ولعل من أهم مظاهر التأثير المغولى على المجتمع المملوكى والذى يتضح بشكل كبير هو انتشار ظاهرة الزواج من مغوليات سواء كانوا أميرات أو جوارى بين سلاطين المماليك والأمراء وحتى من عامة الشعب نظراً لما اشتهرت به هؤلاء المغوليات من جمال باهر على النحو الذى أكدته المصادر المملوكية[4]. ولا شك أن هذا الزواج المختلط كان له تأثير كبير فى انتشار العديد من العادات

---

[1] محمد قنديل البقلى: الطرب فى العصر المملوكى، ط. الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٨٤، ص٧٨-٨٤.

[2] ابن بطوطه: رحلته، ص٣٤٠. وهذه المدينة تسمى الآن آزف على الطرف الشرقى لبحر آزوف. د. حسين مؤنس: ابن بطوطه، ص١٣٨.

[3] ابن بطوطه: رحلته، ص٣٤١.

[4] راجع مثلاً مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٩٥،١٩٩؛ ابن الفرات: تاريخه، مجلد٨ ص٢٠٥؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢-٢٣.

والتقاليد المغولية، ونتج عنه فيما بعد ظهور جيل جديد يمكن أن نطلق اسم "المولدين" (مجازاً) أى من أمهات مغوليات مسلمات قبجاقيات أو أويرات بوذيات وآباء من الممكن أن يكونوا من عناصر غير تركية أو مغولية قبجاقية، ومن هؤلاء المولدين من ارتقى السلطنة مثل الناصر محمد بن قلاوون وكانت أمه ابنة سكباى ابن قراجين التترى الأصل[1]. وكانت إحدى زوجات المنصور قلاوون.

وتبدأ ظاهرة هذا الزواج المختلط فى العصر المملوكى كما تذكر النصوص منذ وفود المغول الأويراتية أو العويراتية إلى مصر عندما استقدمهم زين الدين كتبغا السلطان المملوكى المغولى الأويراتى وأنزلهم فى حارة الحسينية وأفتتن الناس بنسائهم وتنافسوا عليهن بل استدعوا طائفة كبيرة من نسائهم من بلاد الشام، فتكاثر نسلهم واشتدت الرغبة فيهم. وكان للناس فى نكاح نسائهن رغبة كبيرة لحسنهن وجمالهن رغم أنهن ظلوا على غير الملة الإسلامية[2]. وازدادت هذه الرغبة فى الزواج من مغوليات أويرات رغم وثنيتهن بعد الإطاحة بزين الدين كتبغا من عرش السلطنة وقيام السلطان المنصور لاجين بتهجير العديد من هؤلاء الأويراتية ونفيهم من مصر إلى خارجها[3]، إلا أن العديد من الأسر الأويراتية ظلت مقيمة بمصر، وتزوج الجند وغيرهم من بناتهم ثم انغمس من بقى منهم من الرجال فى العسكر وتفرقوا فى الممالك الإسلامية ودخلوا فى دين الإسلام فيما بعد وبقاياهم

---

(1) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٣٨٢.

(2) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢-٢٣. ويلاحظ أن رواية أبو المحاسن حول اعتناق هؤلاء الأويراتية الإسلام من عدمه تتميز بالاضطراب فهو يشير فى أحد مواضع روايته أنه أثناء وجودهم بالشام قبل وفودهم إلى مصر رحب الناس بهم هناك وفرحوا بإسلامهم. أبو المحاسن: النجوم، ج٨ ص٦٠. وهذا يخالف ما أجمعت عليه المصادر المملوكية الأخرى المتقدمة عن استمرارهم على وثنيتهم أو بوذيتهم.

(3) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٣.

فى الخدم[1]. ويؤكد استمرار وجود هؤلاء الأويراتية فى المجتمع المصرى فى عصر المماليك البحرية ذلك النص الذى ذكره المقريزى الخاص بالأمير سيف الدين الماس الحاجب أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون، والذى قبل أن يقتل عام ٧٣٤هـ/١٣٣٣م، كان يهوى شاباً من أبناء الحسينية يعرف بعمير، فكان ينزل إليه ويجمع الأويراتية ويجالسهم ويشرب معهم[2]. ولدينا نص يشير إلى أن أول من افتتح الزواج بالمغوليات من الأمراء أو القادة العسكريين المماليك هو الأمير سيف الدين البرلى السلحدار الذى كان ضمن المماليك الظاهرية أيام الظاهر بيبرس الأول عندما تزوج من الست كليلة المدعوة دولاى ابنة عبد الله التتارية الأصل وربما كان هذا فى أيام السلطان بيبرس الأول[3].

ويبدو أن ظاهرة الزواج من مغوليات لم يقتصر على طبقة الأمراء المماليك وعامة الشعب، بل إن السلاطين المماليك أقبلوا هم أيضاً على الزواج من أميرات مغوليات، كما أشارت بذلك المصادر المملوكية. صحيح أن هذه الزيجات تمت لتحقيق أهداف سياسية أو لأسباب سياسية وذلك من أجل تدعيم الصلات بين دولتى المماليك والقبجاق الذهبية، إلا أن هذه الزيجات السياسية لها جانب اجتماعى هام أيضاً فتعبر عن مدى التأثير المغولى على المجتمع المملوكى من هذا الجانب، مثلما حدث فى عام ٧١٦هـ/١٣١٦م عندما أراد الناصر محمد بن قلاوون، الذى يعتبر أول من افتتح الزواج بأميرات مغوليات من سلاطين المماليك[4]، أن يعقد

---

[1] ابن الفرات: تاريخه، ج٨ ص٢٠٥.

[2] المقريزى: الخطط، ج٢ ص٣٠٧.

[3] المقريزى: الخطط، ج٢ ص٤٢٨.

[4] يلاحظ أن بعض المؤرخين المحدثين ذكروا أن الظاهر بيبرس الأول أول من صاهر خانات قبيلة القبجاق بالزواج من ابنة بركه خان. راجع د. فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية، ص٢١٦. معتمداً على رواية صاحب الدر الفاخر، ص٣٠٣. وبرجوعنا إلى رواية صاحب الدر الفاخر وجد أنه أورد رواية غامضة عن هذا الزواج، بالإضافة إلى اعتماد د. فايد=

معاهدة مع أوزبك خان مغول القبجاق، فأرسل سفارة على رأسها الأمير علاء الدين أيدغدى الخوارزمي ومعهم رسالة إلى أوزبك خان تتضمن طلب الناصر الزواج من بعض الجهات الجنكزية – أى أميرة من بيت جنكيز خان – أو من الذرية الجنكزية على حد تعبير المقريزى[1]، وذلك لتوثيق صلات الود بين الجانبين. ويقال أن مستشارى أوزبك خان من الأمراء نفروا من هذا الطلب فى أول الأمر، لأنهم اعتبروا ذلك خروجاً عن تقاليدهم وعاداتهم، ولذلك اشتطوا فى طلب المهر ووضعوا شروطاً قاسية لإتمام الزواج[2]، الأمر الذى جعل السلطان الناصر يعدل مؤقتاً عن الخطبة[3]. ويرجح أن المصاهرة السياسية التى أرادها السلطان الناصر كانت صعبة التحقيق نظراً لارتباط المغول الشديد بعاداتهم وتقاليدهم رغم اعتناقهم الإسلام وتمسكهم به فإنهم لم يتخلصوا بعد من تعاليم جنكيز خان (الياسا الكبرى) على النحو الذى أكده القلقشندى فى ذلك النص بصبح الأعشى[4]، فكانوا ينظرون إلى المماليك

=حماد أيضاً على آراء بعض المؤرخين المحدثين لتأكيد وجهة نظره. على أن أستاذنا الدكتور سعيد عاشور نبه إلى هذا الخطأ، ويذكر أن معظم المؤرخين المحدثين أخذوا هذا الرأى من كتاب لين بول .Lane-poole, History of Egypt. Vol. VI, p. 260، وقام بتصحيح هذا الخطأ وذكر أن سببه ربما ما ذكرته بعض المصادر أو المراجع عن زوجات الظاهر بيبرس التى قالت إن أولى زوجاته هى ابنة حسام الدين بركه خان التترى وإنها كانت الخوند الكبرى فى حريم بيبرس وأم ولده وولى عهد السعيد بركه خان. ولكن الأمير حسام الدين بركه خان غير بركه خان ملك القفجاق. ولا يعدو الأمر مجرد تشابه فى الاسم أوجد ذلك الخلط. د. سعيد عاشور: مصر والشام، ص ٣٣٤ حاشية رقم(٤).

[1] المقريزى: الخطط، ج٢ ص٦٦.

[2] المقريزى: السلوك، ج٢ق١ ص٢٠٤؛ الخطط، ج٢ ص٦٦.

[3] المقريزى: السلوك، ج٢ق١ ص٢٠٤؛ الخطط، ج٢ ص٦٦.

[4] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٧٤.

فى مصر والشام - رغم أنهم من جنسهم وأبناء عمومتهم - نظرتهم إلى العبيد والأرقاء وأنهم أقل منهم قدراً.

على أن أزبك سرعان ما لبى رغبة السلطان الناصر وعين له إحدى بنات البيت الجنكزخانى وكانت ابنة أخو أزبك[١] خان وهى أميرة تسمى دلنبية (ويقال طلنباى أو طولباى) بنت طغاى بن هندو بن بكر بن باطو بن دوش خان بن جنكيز خان[٢]. على أن ابن بطوطه يذكر أن هذه الأميرة التترية كانت ابنة محمد أوزبك خان القفجاق نفسه[٣]، ويؤكد على رأيه أبو المحاسن الذى ينعتها باسم خوند بنت أزبك خان[٤]. وقد جهز معها أوزبك جماعة من الأمراء فى مائة وخمسين رجلاً وستين جارية[٥]، ووصلوا إلى الإسكندرية بحراً عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، فاستقبلت أحسن استقبال، ودخل بها السلطان الناصر بعد أيام[٦].

على أن دولنبية أو طلنباى لم تكن هى الزوجة المغولية أو التترية الوحيدة للناصر محمد ابن قلاوون، بل يفاجئنا المقريزى بذكر زوجة أخرى له مغولية

---

(١) ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص٣٠٢. ويلاحظ أن ابن أيبك الدوادارى لم يورد اسم هذه الأميرة التترية على النحو الذى ذكره المقريزى فى الخطط،والسلوك.

(٢) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٦٦؛ السلوك، ج٢ ق١ ص٢٠٣.

(٣) ابن بطوطه: رحلته، ص١٨٤ سطور ١٩-٢٠.

(٤) أبو المحاسن: النجوم، ج١ ص٤٦.

(٥) المقريزى: السلوك، ج٢ ص٢٠٣. وتذكر رواية صاحب الدر الفاخر أن عدد من رافقها ألفين وأربعمائة شخص، توفى منهم بالطريق أربعمائة شخص. ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص٣٠٣.

(٦) المقريزى: السلوك، ج٢ ق١ ص٢٠٤-٢٠٥؛ الخطط، ج٢ ص٦٦-٦٧. وتذكر رواية السلوك أن الناصر محمد قد طلقها فيما بعد حوالى عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م وزوجها من أحد مماليكه مما أدى إلى غضب أزبك خان وأرسل يطلب عودتها إلى بلادها. المقريزى: السلوك، ج٢ق٢ ص٤٧٨.

الأصل كانت من جملة إمائه فأعتقها وتزوجها وعرفت باسم الخاتون طغاى أو الخوندة الكبرى ويقال إنها كانت أخت أحد أمراء الناصر ويسمى أقبغا بن عبد الواحد، وأنها ولدت للناصر ابن يدعي أنوك. وكانت بديعة الحسن فائقة الجمال، ولم يدم السلطان على محبة امرأة سواها[1]. وتوضح رواية المقريزى الخاصة بهذه الزوجة المغولية والمسماة أم أنوك مدى التأثير المغولى على الحياة الاجتماعية فى مصر، وعندما أكدت مدى تمسك هذه الخاتون بالتقاليد المغولية، رغم اعتناقها الإسلام، فيما يتعلق بالأطعمة التى كانت تتناولها وهى فى طريقها لأداء فريضة الحج[2].

على أن السلطان الناصر محمد لم يكن أول من افتتح الزواج بأميرات مغوليات ضمن سلاطين المماليك، فلدينا رواية تشير إلى أن أول من بدأ الزواج بمغوليات هو السلطان المنصور بن قلاوون عندما تزوج من ابنة سكباى بن قراجين التترية الأصل فأنجبت له الناصر محمد[3]، وتلاه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون شقيق الناصر محمد عندما تزوج من خوند أردوتكين ابنة نوغية السلاح دار الططرى (التترى) وعندما مات عنها تزوجها من بعده الناصر محمد وولدت منه ولدين وماتا ثم طلقها بعد ذلك[4].

ويبدو أن ظاهرة الزواج بمغوليات لم يقتصر على السلاطين المماليك بل امتد ليشمل تزويج السلاطين لأبنائهم من أميرات مغوليات أو تزويج السلاطين لبناتهم من زوجاتهم المغوليات أو التتريات للأمراء المقربين إليهم حتى لو كانوا من

---

(1) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٤٢٥-٤٢٦.

(2) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٤٢٦. وتذكر الرواية أنها توفيت بعد وفاة الناصر محمد وذلك عام ٧٤٩هـ.

(3) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٣٨٢.

(4) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٦٣.

أصل مغولى ويتمثل ذلك عندما قام السلطان المنصور قلاوون بتزويج أحد أبنائه ويسمى الملك الصالح نور الدين على وكان قد أشركه معه فى السلطنة مدة – كسلطان مشارك – عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م، من إحدى الأميرات المغوليات وكانت ابنة للأمير سيف الدين نوكية بن بيان بن قطوغان أحد الأمراء المغول فى مماليك السلطان المنصور قلاوون[(١)]. وكانت قبل ذلك زوجة للأمير زين الدين كتبغا المغولى الأويراتى (السلطان بعد ذلك)، وعندما رآها السلطان نور الدين على فتنته فألزم كتبغها بطلاقها ليتزوجها هو[(٢)]. ولدينا نص ذكره صاحب زبدة الفكرة يشير إلى الدور الكبير الذى قامت به زوجة السلطان المنصور قلاوون المغولية الأصل فى إتمام هذه الزيجة، ويؤكد النص أن قيامها بهذا الدور الكبير فى هذا الزواج نابع من تمسكها بأصلها المغولى " فمالت إلى الجنسية ولأنهم (أى بنات الأمير سيف الدين نوكيه) وفدوا جميعاً فى وقت واحد إلى الديار المصرية فى الأيام الظاهرية[(٣)]". ويتمثل ذلك أيضاً عندما قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م بتزويج أبناوه الأمير أحمد على بنت الأمير بدر الدين جنكلى بن البابا، والأمير إبراهيم على ابنة الأمير سيف الدين طايربغا وهم مغوليات الأصل[(٤)]، وعندما توفى إبراهيم بن الناصر عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م تزوجت أرملته المغولية من أخيه الأخر يوسف[(٥)]. ومثلما حدث عندما قام السلطان الناصر محمد بتزويج إحدى بناته من إحدى زوجاته المغوليات وكانت تسمى خوند تتر الحجازية من الأمير

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص١٩-٢٠.

(٢) المقريزى: السلوك، ج١ق٣ ص٧١٠.

(٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢١١.

(٤) مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٩٥.

(٥) مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٩٩.

ملكتمر الحجازى الذى يبدو أنه كان من الأمراء المقربين للناصر محمد ونسبت إلى زوجها فعرفت باسمها المذكور[1].

وحرى بالذكر أن نتاج هذا الزواج المختلط من المولدين من أبناء أو فتيات كانوا يسمون بأسماء مغولية أيضاً مما يؤكد تمسك المغول والمغوليات بأصلهم واعتزازهم بمسمياتهم فى بلادهم الأصلية وحتى وصولهم واستقرارهم فى مصر مثل طغاى الخونده الكبرى زوجة السلطان الناصر محمد عندما أطلقت على ابنها اسم "أنوك"[2] وابنة الناصر محمد أيضاً من نفس الزوجة وكانت تسمي خوند تتر الحجازية[3] على النحو الذى أكدناه من قبل. ولا شك أن مثل هذه الزيجات بأميرات مغوليات أو جاريات تعتبر تأكيداً لمدى التأثير المغولى على المجتمع المصرى فى دولة المماليك البحرية كما أنه يوضح أو يفسر كيفية انتشار العديد من العادات والتقاليد المغولية فى مصر والتى تمسكت بها هذه السيدات المغوليات بقوة.

٤- التأثير المغولى اللغوى فى الدولة المملوكية فى مصر:

اللغة ظاهرة اجتماعية تتفاعل هى والمجتمع وتعكس ما بين طبقاته. ومن المقرر لدى اللغويين أن أى احتكاك يحدث بين لغتين أو أكثر أو حتى بين لهجتين يؤدى لا محالة إلى تأثر كل واحدة بالأخرى وأن حركة التبادل اللغوى تنشط بمقدار ما يتاح من فرص للاحتكاك وكلما كثرت فرص الاحتكاك نشطت حركة التبادل اللغوى وتبلغ هذه الحركة أقصى شدتها عندما يسكن شعبان منطقة واحدة أو منطقتين متجاورتين، أو عندما تنزح عناصر أجنبية إلى بلد ما ويوجد عنصر أجنبى ينطق بلغته الأجنبية المتمسك بها. أو عندما يشترك شعبان أو شعوب مختلفة فى حروب أو صراعات طويلة الأمد تتيح فرصة الاحتكاك اللغوى. والحق يقال أن

---

(١) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٧١.

(٢) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٤٢٥.

(٣) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٧١.

أحداً لا يستطيع أن ينكر تأثير اللغات بعضها في بعض لأن ذلك يخضع لعوامل تتحكم فى هذا التأثير منها الوضع الحضارى للغة ثم حجم الشعوب التى تتكلمها، وذلك على نحو الحالة التى نحن بصدد الحديث عنها.

وقبل أن نمضى فى إيضاح تأثير اللسان المغلى على لهجة أو لغة المجتمع المملوكى فى مصر وأيضاً فى بلاد الشام نود أن نذكر أن هذا الجانب من دراستنا من الموضوعات الشائكة والهامة والمعقدة فى آن واحد لأن هذا الجانب أغفل فيه النظر تماماً لدى المؤرخين واللغويين المحدثين من العرب والأوربيين بل لم نجد فيه دراسة مستقلة قائمة بذاتها لخطورة أو دقة مثل هذا الموضوع وقلة المادة التاريخية واللغوية فيه، ولذلك سنحاول بما لدينا من مادة تاريخية ولغوية شحيحة أو قليلة أن نوضح إلى حد ما تأثر اللغة العربية لدى سكان مصر وبلاد الشام فى العصر المملوكى باللسان المغولى وإيضاح العديد من الألفاظ أو الكلمات المغولية التى دخلت على لغة سكان هذه الدول سواء كانوا من العامة أو الأمراء أو الكلمات العربية ذات الأصل المغولى أو التركى التى استعملت كلغة تخاطب بين السلاطين المماليك وأمراؤهم من الأصل المغولى والذين ظلوا محتفظين بلغتهم الأصلية – رغم تعلمهم العربية – وكيف أن هؤلاء الأمراء والقادة من المماليك ذوى الأصل المغولى الذين وفدوا إلى مصر كانوا يخلطون اللسان العربى باللسان المغولى كما أوضحت بذلك المصادر المملوكية التى احتوت على العديد من الألفاظ المغولية التى استعملت فى مصر منذ عصر دولة المماليك البحرية حتى نهاية دولة المماليك الجراكسة نفسها[1].

---

(1) مثلاً: بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٠٣؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢٠؛ العينى: السيف المهند، ص٢٠-٢١؛ أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٢٦٨-٢٦٩؛ ج٧ ص١٨٢-١٨٣.

إن انتصار المماليك على التتار في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م أدى إلى وقوع الكثير من التتار في أسر المماليك، وأسر منهم خلقاً كثيراً صاروا بمصر والشام[١]. ثم كثرت الوافدية في أيام الظاهر بيبرس البندقداري وملئوا مصر والشام " فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم[٢]". ويؤكد القلقشندي على ذلك عندما يقول "وأصبحت مصر بهم آهلة المعالم[٣]". ويبدو أن هؤلاء المغول كانوا حريصين أشد الحرص على التمسك بلغتهم أو إنهم وجدوا صعوبة كبيرة في تعلم اللسان العربي رغم اعتناق معظمهم الإسلام، وزاد من هذا الأمر سياسة العزلة التي فرضها عليهم الظاهر بيبرس ويقصد بذلك القيود الشديدة التي فرضها بعدم احتكاكهم أو اختلاطهم بطبقات الشعب المصري، وتحديد الأماكن التي اتخذها كسكني لهم على النحو الذي أوضحناه مراراً. وهذا يفسر لنا كيف أن بيبرس في خطواته العملية لبناء جيش مملوكي جديد على أسس راسخة قوية يكون عنصر المغول القبجاق وغيرهم من عناصر المغول هم الدعامة الأساسية له، قد حرص على تطبيق نفس التنظيمات العسكرية التي تتشابه إلى حد كبير مع بعض النظم المغولية، وحتى فيما يتعلق بالبناء السياسي، وهذا يفسر لنا النصوص الهامة التي ذكرتها المصادر المملوكية حول اقتباس أو أخذ بيبرس لأحكام الياسا الكبرى فكان " الملك الظاهر - رحمه الله - يسير على قاعدة ملوك التتار وغالب أحكام جنكيز خان من أمر اليسق والتورا[٤]". "والملك الظاهر هذا هو الذي ابتدأ في دولته بأرباب الوظائف من الأمراء والأجناد وإن كان بعضها قبله لم تكن

---

[١] المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٢١.

[٢] المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٢١.

[٣] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٥٨.

[٤] أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٢.

على هذه الصيغة أبداً[1]". كما أنه " عندما تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى أحب أن يسلك فى ملكه بالديار المصرية طريقة جنكيز خان هذا وأموره، ففعل ما أمكنه، ورتب فى سلطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بديار مصر مثل: ضرب البوقات، وتجديد الوظائف[2]".

ولم توضح المصادر كيف تمكن بيبرس من الحصول على نسخة من الياسا المغولية الخاصة بقوانين وأحكام المغول سياسياً وعسكرياً[3]، وإذا كانت هذه النسخة باللغة المغولية الأصلية أم أنه حصل على نسخة مترجمة بالتركية التى دخلتها العديد من الألفاظ المغولية، وكان هو نفسه بأصله القبجاقى ربما كان يتقن هذه اللغة. والمرجح أن بعض الجماعات الوافدة إلى مصر من المغول القبجاق – بصفة خاصة – كانوا يحملون معهم نسخ من هذه الياسا باللغة المغولية المختلطة باللسان التركى – والتى اعتادوا عليها فى مواطنهم الأصلية – الدليل على ذلك أن كلمة الياسا أو اليسق أو الجسق قد انتشرت بين العامة وفى سائر الممالك فى مصر والشام[4]. ولما كان سكان مصر فى العصر المملوكى يعرف أغلبهم أن هذه القوانين كانت مخالفة للشريعة الإسلامية الغراء، ولهذا بدأوا يتندرون بهذه القوانين ويسخرون منها، وقاموا بتحريف كلمة الياسا لأنهم أدركوا صعوبة نطقها باللسان المغلى فزادوا بأولها سيناً فقالوا "سياسة" وأدخلوا عليها الألف واللام فظن من لا علم

---

(1) أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٣.

(2) أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٢٦٨-٢٦٩.. وقد أشار المقريزى لهذه الأمور بشكل غير مباشر؛ المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢١.

(3) يقال إن قوانين الياسا تلك نقشت فى صفائح الفولاذ. ويذكر المقريزى أن العبد الصالح الداعى إلى الله تعالى أبو هاشم أحمد بن البرهان – رحمه الله – أنه رأى نسخة من الياسا بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد. المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢٠.

(4) أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٢٦٨.

عنده أنها كلمة عربية وما الأمر فيها كذلك فهى كلمة مغلية الأصل[1]، ولكنها تعنى هنا السياسة الظالمة التى تحرمها الشريعة الإسلامية ولا يقصد بها العامة السياسة الشرعية وهى كلمة ذات أصل عربى التى تخرج الحق من الظالم الفاجر[2].

ولا شك أن توافد هؤلاء المغول ووجود قوانين الياسا جعل من الضرورى تعلم اللسان المغولى لمعرفة متطلبات هؤلاء الوافدين وترجمة نصوص قوانين الياسا لأخذ منها ما يتعلق بالتنظيمات العسكرية والرتب والوظائف الجديدة، أو بعض التنظيمات السياسية للدولة المملوكية الجديدة والجيش المملوكى الجديد، ومنذ ذلك بدأ يظهر موجة أو تيار يدعو لتعلم اللغة المغولية أو لغة القبجاق والياسا، خاصة وأن المراسلات التى كانت دائرة بين الظاهر بيبرس الأول ومن تلاه من سلاطين المماليك، وخانات قبيلة الأوردو الذهبية المسلمة، كانت تتطلب وجود مترجمين للغتين المغولية أو التركية فى حالة وجود رسائل مرسلة من خانات القبجاق إلى سلاطين المماليك وكان معظمها باللسان المغلى[3] مثل الرسائل التى كان يرسلها بركه خان إلى بيبرس، ورسائل أحمد تكودار إيلخان مغول فارس الذى اعتنق الإسلام إلى المنصور قلاوون[4]. وبالتالى ضرورة وجود مترجمين يعرفون اللغتين العربية والمغولية لترجمة الرسائل المرسلة من سلاطين المماليك باللغة العربية أو حتى التركية إلى خانات المغول لقراءتها باللسان المغلى كما أكدت بذلك بعض المصادر المملوكية[5].

---

(1) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢٠.

(2) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٢٢٠. وراجع التحليل والمناقشة القيمة التى أوردها المقريزى حول كلمة سياسة فى نفس المصدر السابق والصفحة.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٩؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٩٩.

(4) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٤-٥؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٠٣.

(5) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٩-١٤٠؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص١٠٠.

ولدينا نص فريد في الخطط المقريزية انفرد به المقريزى عن جميع المصادر المملوكية الأخرى يؤكد وجهات النظر السابقة يشير فيه إلى انتشار موجة تعلم اللغة المغولية خاصة بعد وفود هذه الأعداد الكبيرة من المغول الأويرات في عهد السلطان كتبغا المغولى الأصل واختلاطهم أو احتكاكهم بطبقات المجتمع المملوكى من أمراء وطبقة العامة، وبالتالى ظهرت الحاجة الملحة لتعلم هذه اللغة التى برع فيها العديد من الناس وعلى رأسهم الأمراء مثلما كان عليه الحال فى عهد الأشرف خليل ابن قلاوون ثم فى عهد الناصر محمد عندما نقرأ عن وجود اثنين من الأمراء أحدهما كان يسمى سيف الدين الحاج أرقطاى أحد مماليك الأشرف خليل وكان جمداراً ومعه الأمير أيتمش نائب الكرك وكانت بينهما أخوه " ولهما معرفة بلسان الترك القبجاقى ويرجع إليهما فى الياسة التى هى شريعة جنكيز خان[1]". ويرجح أن هؤلاء الأمراء كان لهما دور كبير فى ترجمة العديد من رسائل خانات مغول القبجاق إلى سلاطين المماليك من اللغة المغولية أو التركية إلى اللغة العربية، وربما كانا يقومان بكتابة الرسائل السلطانية المرسلة من سلاطين المماليك إلى خانات أو إيلخانات المغول بنفس اللغة المغولية.

ولا شك أن مثل هذه الأمور أدت إلى انتشار العديد من الألفاظ أو الكلمات المغولية داخل المجتمع المملوكى مع نوع من التحريف بما يتفق ونطق طبقات المجتمع لها مثل كلمة سياسة السابقة الذكر ومثل الألفاظ الخاصة بالوظائف والرتب العسكرية لأمراء وقادة الجيش المملوكى التى تضمنتها المصادر المملوكية مثل كلمة يَسَوول (بتفخيم السين) التى أخذها بيبرس ليطلقها على من يتولى وظيفة أو منصب رأس نوبة وكانت وظيفة عظيمة عند التتار[2]، بالإضافة إلى كلمة " آق طشى " وهى مغولية الأصل كانت أحياناً تطلق على أمير المزود الذى يأكل فيه الفرس

---

(1) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٤٠ سطور ١-٣ من أسفل.

(2) أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٥.

وأحياناً كان يطلق عليه اسم أمير آخور[1]. ولا ننسى المسميات أو الكلمات المغولية الأصل التى كانت تستعمل فى النظم العسكرية المملوكية وسبق الحديث عنها مثل "أوطاق أو وطاق" وهى تعنى خيمة أو خيام الجنود، وكلمة "قشلاق" وهى كلمة مغولية تعنى الأماكن التى كان ينزلها ويعسكر بها الجيش فى الشتاء[2].

إن التأثير المغولى على اللغة فى مصر المملوكية - أى اللغة العربية - تتمثل فى الأحاديث التى كانت تدور بين سلاطين المماليك وخشداشيتهم وأمرائهم وقادتهم العسكريين، التى كان يختلط بها اللسان العربى باللسان المغلى، وذلك عندما كانوا يوجهون كلامهم إلى السلاطين بمخاطبته بكلمة "خوند" أو زوجة السلطان باسم "الخاتون أو الخوندة[3]" وهى ألفاظ مغولية ترددت كثيراً فى المصادر المملوكية والمصادر المغولية وهى ألفاظ كان يستعملها المغول أنفسهم قبل قيام دولة المماليك البحرية مثلما أكد بذلك ابن بطوطه فى رحلته[4]. وعندما وصلت رسالة أحد إيلخانات مغول فارس ويسمى أحمد تكودار - الذى كان قد خلف أبغا على مملكة إيلخانات مغول فارس واعتنق الإسلام - إلى السلطان المنصور قلاوون يخبره فيها باعتناقه الإسلام وكانت الرسالة باللغة المغولية وبغير عنوان وفيها " طمغات حمر[5] (حوالى ثلاثة عشرة طمغة)[6]". ويلاحظ أن كلمة "طمغات" التى احتواها كتاب أحمد تكودار كلمة مغولية معناها خاتم، ثم دخلت اللغة التركية فى صيغة تمغة ومنها

---

(1) أبو المحاسن: النجوم، ج٧ ص١٨٥.

(2) سبق التحدث عن هذه الألفاظ فى الجزء الخاص بالنظم العسكرية. راجع د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٤٧.

(3) مثلاً المقريزى: الخطط، ج٢ ص٤٢٥؛ أبو المحاسن: النجوم، ج١٠ ص٤٦.

(4) ابن بطوطه: رحلته، ص٢٤٣، ٣٤٥.

(5) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٠٣.

(6) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٦.

أخذت اللغة العربية كلمة تمغة أو دمغة والتى تستعمل حتى العصر الحديث[1]. وهذا يؤكد وجود مؤثرات مغولية لغوية علـى اللغـة العربيـة ودخـول العديـد مـن الكلمـات المغولية فى الألفاظ العربية.

وهناك أمثلة عديدة لهذه الألفاظ المغولية الأصل الدخيلة على العربيـة فـى مصر[2]، ولكن المقام يضيق هنا عن حصرها خاصة وأن البحث قد زاد وطال عمـا هو مقدر له. وإن كان لدينا أدلة وشواهد عديدة تؤكد مدى انتشار ظاهرة تعلـم اللغـة المغولية فى مصر وتأثيرها على بعض الألفـاظ العربيـة، بمـا احتـواه كتـاب النجـوم الزاهرة بالألفاظ أو العبارات المغولية العديدة[3] التى تشير إلى أن أبو المحاسن ذلـك المؤرخ المصرى فى العصر المملوكى الأخير بما كان يعرف هذه اللغة جيـداً بدليـل أنه أحياناً كان يورد بعض الوظائف المملوكية وما يرادفها باللسـان المغلـى، وربمـا أنه استقى هذه المادة التاريخية من بقايا أجيال هذه الأسرات المغولية التى وفدت إلى مصر منذ عهد بيبرس الأول، أو أنه أطلع على المصادر المغولية التى تحدثـت عـن المغول وتنظيماتهم الإداريـة والسياسية والعسكرية بالإضافـة إلـى نظمهـم الأخـرى الاجتماعية وغيرها باللغة المغولية. ويبدو أنـه كـان دارسـاً جيداً لهـذه اللغـة، بدليـل استقاءه لعديد من العبارات فى معجمه الكبير.

---

[1] د. مراد كامل فى شروحاته لكتاب تشريف الأيام لابن عبد الظاهر، ص٦ حاشية٢؛ د. زبيـدة عطا فى شروحاتها وتعليقاتها لكتاب زبدة الفكـرة، ج٩ ص٢٠٣ حاشـية٣. وكـان هـذا الخـاتم المغولى مربعاً فى الشكل يحمل كتابة صينية تسـتخدم فـى مكاتبـات حـاكم الصيـن إلـى حـاكم الفرس، وكانت الرسائل صغيرة فى العرض، طويلة وتتكون من ورق يلصـق بعضـه ببعـض ويتمغ عند كل التحام باللون الأحمر وهو اللون الإمبراطوري فى الصين وهذا يفسر لنا عـدد التمغات ولونها فى نص تشريف الأيام، ص٦.

[2] يلاحظ أن مؤلفات ابن عبد الظاهر احتوت على بعـض الألفـاظ المغوليـة مثـل تشـريف الأيـام والعصور، وكذلك مؤلفات بيبرس الدوادار فى زبدة الفكرة، ج٩ ص٢٠٣.

[3] أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص٢٦٨-٢٦٩، ج٧ ص١٨٣-١٨٥.

وعندما نتجول بين أوراق كتاب السيف المهند لبدر الدين العيني فإنه يورد أسماء بعض القبائل التترية (أو الططرية على حد تعبيره) والتركية التي اختلطت بالتتر ويورد أسماء للكتابات التترية أو التركية المختلطة بالتترية المستعملة لديهم وتمثل رسومات وعلامات عديدة كانت توشم بها دوابهم وأوانيهم، لكي يعرف بها بعضهم بعضاً[1]، مما يؤكد براعته في هذه اللغة أو اللغتين المغولية والتركية وإتقانه لهما كتابة وتحدثاً، مما يدل على انتشار هذه اللغة في المجتمع المصري المملوكي وتأثر الناس بها وإقبالهم الشديد على تعلمها مثل أبو المحاسن وبدر الدين العيني وغيرهما من المؤرخين المعاصرين للفترة موضوع الدراسة أو القريبين منها أو المتأخرين عنها أي الذين كانوا معاصرين لعصر المماليك الجراكسة أو العصر المملوكي المتأخر.

٥- النشاط العمراني للمماليك المغول في مصر في عصر دولة المماليك البحرية:

لم يكن للمغول طرازاً معمارياً أو فنياً مميزاً، بل تأثروا تماماً بالحضارة الصينية والفن الصيني بعد أن استولوا على الصين في إحدى مراحل تاريخهم الطويل. ورغم اعتناق دولة مغول القبيلة الذهبية الإسلام منذ عهد بركه خان، ورغم اعتناق الأسرة الإيلخانية التي استولت على فارس وأقاموا بها دولة مغول فارس الإسلام منذ عهد أحمد تكودار الذي اعتلى عرش إيلخانات المغول بعد أبغا واعتنق الإسلام عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م، إلا أن هذه الدول التي تهذب أفرادها وأتباعهم بالإسلام والحضارة الإسلامية لم يكن لها طرز فنية أو معمارية مميزة تؤثر في الممالك المجاورة لها أو حتى البعيدة عنها والتي تربطها بها علاقات ودية مثلما كان الحال مع سلطنة المماليك.

---

[1] راجع هذه الرسومات أو العلامات التركية أو المغولية الخاصة بقبائل المغول أو الأتراك في العيني: السيف المهند، ص١٩-٢١.

فالأسرة الإيلخانية المغولية التى قامت فى إيران وحكمتها حتى عام ٧٣٥هـ/١٣٣٦م والتى تهذب أفرادها بالحضارة الإيرانية، فقد امتاز عصرهم فى إيران بتأثير الأساليب الفنية أو المعمارية الصينية فى فنون إيران. وينبغى أن نذكر ما فعله المغول وتيمور لنك فيما بعد وخلفاؤه فى سبيل الفن وتشجيع الفنانين للدرجة التى يمكن أن نغض الطرف عما حدث فى حروبهم الأولى من تدمير وسفك الدماء[١]. ويلاحظ أن الطراز التترى الإيراني كان مشبعاً بالأساليب الفنية الصينية التى عمرت إيران نفسها وما جاورها من البلدان التى تأثرت بفنونها لا سيما مصر فى العصر الفاطمى[٢].

ورغم أن المغول فى حروبهم التى اجتاحوا فيها آسيا وشرق أوربا ليصلوا إلى حدود مصر، كانوا يعتادون فى المدن التى يحتلونها على قتل النساء والأبناء والأقارب، وتخريب هذه المدن ثم إباحة القتل العام، ويبقوا على الصناع وأرباب الحرف، لكى يرسلونهم إلى تركستان ومنغوليا لإنشاء مبانيهم هناك[٣]، ورغم ذلك لم يكن لهم طراز معمارى أو فن معمارى يؤثر على غيرهم من الممالك المجاورة. ولذلك يلاحظ أن هؤلاء الوافدية من المماليك المغول إلى مصر وبالتحديد منذ عصر بيبرس الأول لم يحملوا معهم أى طراز مغولى يضعوه فى المنشآت العمرانية أو يسهموا به فى النهضة العمرانية الضخمة التى شهدتها مصر فى العصر المملوكى[٤]. ولكن هذا لم يمنع أن يسهم العديد من الأمراء أو السلاطين

---

[١] د. عبد الرحمن ذكى: الفن الإسلامي، سلسلة كتابك (ط. دار المعارف بمصر ١٩٨٤م) سلسلة رقم ١٦٤ ص٦٣.

[٢] د. زكى محمد حسن: الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامي، ط. القاهرة ١٩٤٦، ص٣١.

[٣] د. فؤاد الصياد: المغول، ص٢٦١-٢٦٢.

[٤] لهذا فضلنا أن يكون عنوان هذه الجزئية الأخيرة من الدراسة " النشاط العمرانى للمغول المماليك فى مصر، وليس التأثير المغولى على العمارة المملوكية فى مصر فى عهد دولة المماليك الأولى ".

وحتى زوجات السلاطين من أصول مغولية وبعد اعتناقهم الإسلام وتمسكهم به، في النهضة المعمارية في مصر في عصر دولة المماليك البحرية، وسجلوا لأنفسهم صفحات ذهبية في تاريخ العمارة المملوكية، وتميزت أيامهم بعمائرهم الدينية والمدنية التي تناثرت في أحياء القاهرة العديدة من مساجد وخانقاوات وأحياء أو حارات وقيساريات ومنازل وآدر ووكالات[1] للتجار الوافدين إلى مصر بجانب بعض الأربطة والدروب والحمامات والمدارس.

ومن أمثلة ذلك رحبة كتبغا المنسوبة إلى السلطان زين الدين كتبغا وكانت من جملة اصطبل الجميزة، وكانت تقع تجاه داره التي كان يسكنها وهو أمير قبل أن يستقر في دست السلطنة وسكنها بنوه من بعده فعرفت به[2]. وهناك أيضاً دار طينال التي كانت بخط الخراطين داخل الدرب المعروف بخربة صالح، وكان موضعها وما حولها في الدولة الفاطمية مارستاناً، وأنشأ هذه الدار الأمير طينال التترى الجنس وكان أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون، كما كانت تنسب إليه أيضاً قيسارية بسويقة أمير الجيوش[3].

وهناك أيضاً حكر أقبغا الذى ينسب للأمير المغولي الأصل أقبغا بن عبد الواحد استادار السلطان الناصر محمد بن قلاوون وشقيق زوجة السلطان المعروفة باسم طغاى الخونده الكبرى وأم ابنة الأمير أنوك[4]، وأذن أقبغا للناس في تحكيره فحكر وبنى فيه العديد من المساكن وإلى العصر الذى عاش فيه المقريزى كان

---

(1) الوكالات: هى الأسواق التجارية والأصل في الوكالة " الخان " وهي كلمة فارسية الأصل بمعنى منزل والوكالات أماكن للتجارة يعرض فيها التجار بضاعتهم. د. كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر، سلسلة كتابك، ط. دار المعارف بمصر ١٩٧٧، سلسلة رقم ٣٠ ص٤٥.

(2) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٥٠.

(3) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٧٦.

(4) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٤٢٥.

" يجبى حكره ويصرف فى مصارف المدرسة الأقبغاوية (التى بناها أقبغا هذا أيضاً) المجاورة للجامع الأزهر بالقاهرة[1]". وكان أول من عمر حكر أقبغا هذا استادار الأمير جنكل أو جنكلى بن البابا المغولى الأصل[2]، فتبعه الناس. ولما بنى الناس فيه عرف بالآدر لكثرة من سكن فيه من التتر والوافدية من أصحاب الأمير ابن البابا الذى عمر هو نفسه تجاه هذا الحكر حمامين استمرا حتى عصر المقريزى كما يذكر هو بنفسه، كما أنشأ ابن البابا بعمارة هذا الحكر بظاهرة سوق وجامع[3]. وهناك درب خارج باب زويلة ينسب إلى هذا الأمير المغولى يعرف بدرب ابن البابا[4].

على أن أكثر هؤلاء الأمراء المماليك المغول نشاطاً فى النهضة العمرانية المملوكية هو الأمير سيف الدين قوصون المغولى الوافد من بلاد بركه خان إلى مصر صحبة خوند الأميرة المغولية التى تزوجها الناصر محمد بن قلاوون، والذى أصبح من أكابر أمراء الدولة، وأعيان السلطنة المملوكية فيما بعد، وارتفع شأنه بالديار المصرية حتى استبد بالأمور على حد تعبير ابن حبيب[5]. وبلغ من علو شأنه أن السلطان الناصر محمد زوجه من إحدى بناته[6]. وأشادت المصادر المملوكية بنشاطه العمرانى الكبير داخل مصر لدرجة أن ابن بطوطه الرحالة المعاصر لهذه الفترة، عندما وفد إلى مصر أشار إلى قوصون باعتباره أكبر أمراء السلطان المملوكى وكان يتنافس مع غيره من الأمراء مثل ابن البابا وبشتاك فى فعل

---

[1] المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٦.

[2] المقريزى: الخطط، ج٢ ص١٣٣. ويسمى ابن بطوطه هذا الأمير ابن البابة. ابن بطوطه: رحلته، ص٦٢.

[3] المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٦.

[4] المقريزى: الخطط، ج٢ ص١٣٣.

[5] ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣ ص٣٣. وكان له أخ جاء فى صحبته يسمى صوصون وكان أمير مائة مقدم ألف بمصر. أبو المحاسن: النجوم، ج١٠ ص٤٧.

[6] أبو المحاسن: النجوم، ج١٠ ص٤٧.

الخيرات وبناء المساجد والزوايا[1]. وله أبنية عديدة بمصر منها الجامع الذى أقامه خارج باب زويلة وعرف باسمه عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م بالإضافة إلى الخانقاه داخل باب القرافة تجاه الجامع المنسوب إليه[2] والتى أتم عمارتها عام ٧٣٦هـ/١٣٣٥م[3]. وعمر بجانب مسجده هذا حماماً عرف باسمه[4]، بالإضافة إلى داره التى بناها بالرميلة تحت القلعة تجاه باب السلسلة وحكر قوصون[5]، بالإضافة إلى القصر المعروف باسمه بالقرب من مسجد ومدرسة السلطان حسن[6]. بجانب الوكالات التى أنشأها بما فيها من فنادق وخانات كان ينزل بها التجار ببضائع بلاد الشام[7]. وهذه الوكالات ذات الطابع الاقتصادى التى أنشأها الأمراء المغول المماليك فى مصر تمثل إسهاماً من قبل هؤلاء المماليك المغول الأصل في النشاط الاقتصادى للدولة المملوكية. ولا ننسى الإشارة إلى حكر قوصون وكان مجاوراً لقناطر السباع، اشتراه قوصون وأذن للناس بالبناء عليه فحكروه وبنوا فيه الآدر وغيرها[8].

على أن النشاط العمرانى فى مصر فى عصر دولة المماليك البحرية لم يقتصر فقط على الأمراء والسلاطين المماليك من أصل مغولى، بل امتد ليشمل

---

(١) ابن بطوطه: رحلته، ص٦٢.

(٢) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٣٠٧-٣٠٨،٣٢٥،٤٢٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣ ص٣٣-٣٤.

(٣) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٤٢٥.

(٤) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٣٢٥.

(٥) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٣٠٨.

(٦) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٧١-٧٢.

(٧) المقريزى: الخطط، ج٢ ص٩٣.

(٨) المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٥. ولا ننسى الإشارة إلى اصطبل عرف باسمه أيضاً بجوار مدرسة السلطان حسن. المقريزى: الخطط، ج٢ ص٧٢. وزريبة تعرف باسمه أيضاً على شاطئ النيل. المقريزى: الخطط، ج٢ ص١١٧.

أميرات مغوليات من زوجات وبنات سلاطين المماليك، فهناك دار طولباى أو طلنباى المنسوبة إلى الأميرة التترية طلنباى أو دلنبية زوجة السلطان الناصر محمد ابن قلاوون[1]. وهناك أيضاً قصر يعرف بقصر الحجازية كان قد بدأ في بناءه الأمير قوصون ومات قبل أن يتم بناؤه، فصار يعرف بعد ذلك بقصر قوصون إلى أن اشترته خوند تتر الحجازية ابنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون من إحدى زوجاته المغولية وكانت زوجة الأمير ملكتمر الحجازي، "فعمرته عمارة ملوكية وتأنقت فيه تأنقاً زائداً، وأجرت الماء إلى أعلاه وعملت تحت القصر اصطبلاً كبيراً لخيولها وساحة كبيرة يشرف عليها من شبابيك حديد، فجاء شيئاً عجيباً حسناً، وأنشأت بجواره مدرستها التى تعرف حتى عصر المقريزى بالمدرسة الحجازية"[2].

وهناك إحدى الآدر الكبرى بالقاهرة عرفت بدار خوند كانت من حقوق باب زويلة نسبة إلى الأميرة خواندر دوتكين ابنة نوغية (أو نوكية) السلاح الدار التترى الأصل زوجة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ثم أخيه الناصر محمد فيما بعد[3]. بالإضافة إلى خانقاه كانت تعرف باسم خانقاه أم أنوك وهى الخاتون طغاى أو طغاى الخونده الكبرى زوجة السلطان الناصر محمد وأم ابنة أنوك وكانت عفيفة طاهرة كثيرة الخير والصدقات[4]. ولا ننسى الإشارة إلى رباط الست كليلة (يقصد بالرباط هنا بيت الصوفية ومنزلهم)[5] المعروفة باسم دولاى إبنة الأمير عبد الله التترى وزوج الأمير سيف الدين البرلي السلاحدار الظاهرى، وجعلته مسجداً

---

[1] المقريزى: الخطط، ج٢ ص٦٦.

[2] المقريزى: الخطط، ج٢ ص٧١.

[3] المقريزى: الخطط، ج٢ ص٦٣.

[4] المقريزى: الخطط، ج٢ ص٤٢٥-٤٢٦.

[5] المقريزى: الخطط، ج٢ ص٤٢٧.

ورباطاً ورتبت فيه إماماً ومؤذناً[1]. وهناك أمثلة أخرى يضيق المقام عن حصرها توضح مدى النشاط العمراني للمماليك المغول في مصر وإسهامهم الكبير الملحوظ في النهضة العمرانية المملوكية في مصر والتي احتوتها المصادر المملوكية وعلى رأسها كتاب الخطط المقريزية.

وفي الختام أرجو أن أكون من خلال هذا البحث المتواضع قد وفقت في إلقاء بعض الأضواء على موضوع لم تتطرق إليه معظم المراجع العديدة التي تناولت الدولة المملوكية في عصرها الأول سياسياً وحضارياً، وهو موضوع المؤثرات المغولية على الدولة المملوكية في مصر عسكرياً وسياسياً واجتماعياً ولغوياً وعمرانياً وأعترف بأنني ربما قصرت في تناول بعض الموضوعات على نحو مفصل بسبب ندرة المادة التاريخية فيها، إلا أنني أرجو أن أكون قد تمكنت من توضيح بعض مظاهر هذه المؤثرات حسب اجتهادنا الشخصي وما أمكننا استنتاجه استناداً إلى المصادر المتاحة لنا في موضوع من الموضوعات الشائكة والحساسة في تاريخ الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام، وأكون قد فتحت المجال بذلك أمام دراسات أخرى نقدية بناءة تساعدنا في تكوين قاعدة ودراسات أفضل من هذه التي أتينا بها، وهي جهد المقل.

---

[1] المقريزي: الخطط، ج٢ ص٤٢٨.

مصادر ومراجع الدراسة

أولاً: المصادر العربية

ابن أبى الفضائل (ت بعد ٧٢٥هـ / بعد ١٣٢٤م) مفضل بن أبى الفضائل:

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد المعروف بتاريخ ابن أبى الفضائل، نشر بلوشيه Blochet، باريس ١٩١١-١٩٣٠م فى مجموعة الـ:

Patrologia orientalis, To. XII, XIV,XX.

ابن أياس (ت ٩٣٠هـ /١٥٢٢ م) محمد بن أحمد بن أياس المصرى:

بدائع الزهور فى وقائع الدهور، نشر بول كالة، محمد مصطفى، ط. استنبول ١٩٣١-١٩٣٦م.

ابن أيبك الدوادارى (ت ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م) أبو بكر عبد الله بن أيبك الدوادارى:

كنز الدرر وجامع الغرر: ج٨ باسم الدره الذكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ مان، القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

ج٩ باسم: الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.

ج٧: مخطوط (مقتطفات منه من بعض المراجع الحديثة).

ابن بطوطه (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى:

رحلة ابن بطوطه المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، ط. دار الكتب العلمية (بيروت) ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

ابن حبيب **(ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب:**
تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ثلاث أجزاء، تحقيق د. محمد محمد أمين، ط. الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٦، ١٩٨٢، ١٩٨٦م.

ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) شهاب الدين أحمد بن حجر:
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، خمسة أجزاء، تحقيق محمد سيد جاد الحق، الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م (ج٢).

ابن سباط **(ت بعد ٩٢٦هـ / بعد ١٥١٩م) حمزة بن أحمد بن عمر المعروف بابن سباط الغربى:**
تاريخ ابن سباط، تحقيق د. عمر التدمرى، جزءان (ط. جروس برس طرابلس - لبنان) الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

ابن شاهين الظاهرى (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) غرس الدين خليل:
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشر بول راويس Paul Ravisse؛ باريس ١٨٩٤م.

ابن الشحنة **(ت ٩١٠ أو ٩١٦هـ / ١٥٠٤م أو ١٥١٠م) عفيف الدين حسين بن محمد بن محمد محب الدين الشافعى:**
البدر الزاهر فى نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباى، تحقيق د. عمر التدمرى، ط. دار الكتاب العربى (بيروت - الطبعة الأولى) ١٤٠٣هـ / ١٩٨٦م.

ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٢م) محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين الجذامى المصرى الضرير:

- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، ط. الرياض ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

- تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق د. مراد كامل، الطبعة الأولى- القاهرة ١٩٦١م.

ابن عربشاة (ت ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقى:

عجائب المقدور فى نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصى، الطبعة الأولى - بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم:

تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات، مجلدات السابع والثامن والتاسع تحقيق د. قسطنطين زريق وآخرين. ط. بيروت ١٩٣٦، ١٩٣٨، ١٩٤٢م.

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر:

البداية والنهاية، ط. بيروت-الطبعة السادسة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى:

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة: ج١-١٢ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب (مطبعة كوستاتسوماس).

- ج١٣ تحقيق فهيم شلتوت، نشر الهيئة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

– ج١٤ تحقيق د. جمال محرز، فهيم شلتوت، ط. الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م.

– المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ج٣ تحقيق د. نبيل عبد العزيز، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٩م.

أبو الفداء **(ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل:**

المختصر فى أخبار البشر، ط. دار المعرفة ببيروت (بدون تاريخ).

الإدريسى **(ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموى الحسنى:**

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مجلدان (طبعة مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة) بدون تاريخ.

الأصطخرى **(ت ٣٤٠هـ / ٩٥١م) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى:**

كتاب مسالك الممالك، ط. ليدن (بريل) ١٩٢٧م.

بيبرس الدوادار أو المنصورى (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م) الأمير ركن الدين بيبرس الخطائى المنصورى الدوادار:

– زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، ج٩ تحقيق د. زبيدة عطا، نسخة مطبوعة لم توضح مكان وتاريخ الطبعة.

– التحفة الملوكية فى الدولة التركية، نشر وتقديم د. عبد الحميد حمدان، ط. الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٨٧.

البدليسى (ت بعد ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م) شرف خان:
شرفنامة، نقله من الفارسية إلى العربية محمد على عونى، راجعه وقدم له د. يحيى الخشاب، ط. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٢، جزءان.
الخطيب الجوهرى (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م) على بن داود الصيرفى:
نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، تحقيق د. حسن حبشى، ج٣. القاهرة ١٩٧٧م.
رشيد الدين (ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م) فضل الله الهمذانى:
جامع التواريخ: نسخة من مجلد واحد نقله من الفارسية إلى العربية د. فؤاد الصياد، تقديم د. يحيى الخشاب، ط. بيروت بدون تاريخ، نسخة تمثل المجلد الثانى ط. دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ١٩٦٠م.
السيوطى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ابن محمد السيوطى:
تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة، ط. مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة – بدون تاريخ.
القلقشندى (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أبو العباس أحمد:
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ جزء (نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية) مطبعة كوستاتسوماس بالقاهرة.

المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) تقى الدين أبو العباس أحمد:

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: ج١ فى ثلاثة أقسام، ج٢ فى ثلاثة أقسام تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٤-١٩٥٨م، ج٣ فى ثلاثة أقسام تحقيق د. سعيد عاشور، مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧١م.

- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، نسخة مصورة عن طبعة بولاق ١٢٧٠هـ، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة، جزءان.

العينى (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد ابن موسى بن أحمد بن الحسين:

السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى، تحقيق وتقديم فهيم شلتوت، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربى للنشر والطباعة، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٦٧م.

النويرى (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:

نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج٢٧ تحقيق د. سعيد عاشور، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة، د. فؤاد الصياد، ط. الهيئة المصرية للكتاب ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م، ج٣١ (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة).

النرشخى (ت ٣٤٨هـ / ٩٥٩م) أبو بكر محمد بن جعفر:
تاريخ بخارى، عربه من الفارسية وقدم له وحققه د. أمين بدوى، نصر الله مبشر الطرازى، الطبعة الثالثة – دار المعارف بمصر ١٩٩٣م.

قزوينى (ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) حمد الله مستوفى:
تاريخ كزيدة، تحقيق المستشرق إدوارد براون، جلد أول، ط. لندن ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م (بالفارسية).

مؤرخ مجهول (ت بعد ٧٤١هـ / ١٣٤٠م):
تاريخ سلاطين المماليك، نشر زترشتين Zettersteen مع مقدمة بالألمانية، ط. ليدن ١٩١٩م.

ثانياً: المصادر الأوربية والأرمينية

ماركو بولو :

– رحلات ماركو بولو، ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسدن ثم ترجمها للعربية عبد العزيز جاويد، ط. الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة ١٩٧٧م.

Grigor of Akanc,

- History of the nation of the Archers (The Mongols): The Armenian text (Edited with an English translation) by Blake (R.) & Frye (R.N.), Harvard university press, Cambridge 1954.

ثالثاً: المراجع العربية والمعربة

د. السيد الباز العرينى:

- المماليك، ط. بيروت ١٩٦٧م.

د. أحمد مختار العبادى:

- قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، ط. إسكندرية ١٩٨٢م.

د. أحمد عبد الكريم سليمان:

- العنصرية وأثرها فى الجيش المملوكى، ط. دار النهضة العربية بالقاهرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- المغول والمماليك فى عهد دولة بنى قلاوون، ط. دار النهضة العربية، الطبعة الأولى- القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

برتولد شبولر:

- العالم الإسلامي فى العصر المغولى، نقله إلى العربية من الألمانية خالد أسعد عيسى، راجعه وقدم له د. سهيل زكار، ط. دار حسان (دمشق) الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

د. حياة ناصر الحجى:

- العلاقات بين دولة المماليك ودول مغول القبجاق، حوليات كلية الآداب – جامعة الكويت، الحولية الثانية عام ١٤٠٠هـ / ١٩٨١م.

بارتولد (فاسيلى فلاديمير وفتش):

- تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله عن الروسية إلى العربية صلاح الدين هاشم، ط. الكويت ١٤٠١هـ /١٩٨١م.

د. حسين مؤنس:

- ابن بطوطه ورحلاته، ط. دار المعارف بمصر ١٩٨٠م.

د. زبيدة عطا:

- الترك فى العصور الوسطى: بيزنطه وسلاجقة الروم والعثمانيون، ط. دار الفكر العربى (بدون تاريخ).

د. زكى محمد حسن:

- الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامي، القاهرة ١٩٤٦م.

د. سعيد عبد الفتاح عاشور:

- مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، ط. بيروت ١٩٨٢.

د. سعد الغامدى:

- جوانب من حياة المغول المعيشية، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية مجلد ٣٧ عام ١٩٨٩م (ص١٣١-١٧١).
- الياسا: دراسة نقدية تحليلية وإستنتاجية لبعض نصوصها، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، مجلد ٣٧ عام ١٩٨٩ (ص٧٧-١٢٨).

د. عبد الرحمن زكى:

- الفن الإسلامي، سلسلة كتابك (ط. دار المعارف بمصر عام ١٩٨٤م) سلسلة رقم ١٦٤.

د. فؤاد عبد المعطى الصياد:

- المغول فى التاريخ، القاهرة ١٩٦٠م.

- السلطان محمود غازان خان واعتناقه الإسلام، الطبعة الأولى بالقاهرة عام ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

د. فايد حماد عاشور:

- العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى، ط. دار المعارف بمصر عام ١٩٧٦م.

د. محمد مصطفى زيادة:

- بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية، المجلد الرابع، عدد رقم (١) سنة ١٩٣٦م.

د. محمد جمال الدين سرور:

- دولة بنى قلاوون فى مصر، القاهرة ١٩٤٧م.

- دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره، القاهرة ١٩٦٠م.

د. محمد عبد العال أحمد:

- أضواء جديدة على إحياء الخلافة العباسية: أسبابها، وموقف حكام بعض الأقطار الإسلامية منها، ط. ١٩٨٧م.

ماير (ل.أ.):

- الملابس المملوكية، ترجمها عن الألمانية صالح الشيتى، مراجعة وتقديم د. عبد الرحمن زكى، ط. الهيئة المصرية للكتاب – القاهرة ١٩٧٢م.

محمد قنديل البقلى:

- الطرب فى العصر المملوكى، ط. الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤م.

د. كمال الدين سامح:

- العمارة الإسلامية فى مصر ، سلسلة كتابك، ط. دار المعارف بمصر عام ١٩٧٧م، سلسلة رقم ٣٠.

هايد (ف):

- تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا محمد رضا، مراجعة د. عز الدين فودة، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٩١م، ج٢.

رابعاً: المراجع الأوربية

Ayalon (D.),

- The Wafidiya in the Mamluk Kingdom, No. II in " Studies on the Mamluks of Egypt 1250-1517, London 1977.

Cleaves (F.W.), (Ed.),

- The Mongolian names and terms in the History of the nation of the Archers by Grigor of Akanc, Harvard university press, Cambridge, Massachusetts 1954.

Dozy (R.).

- Dictionnaire detaille des nomes des vétêments chez les Arabes, Amesterdam 1845.

Herz Bey (Max),

- Armes et armures Arabes in: Bulletin d'institute Français d'Archéologie orientale, Le Caire 1910, To VII, pp. 1-4

Lane-poole (S.),

- History of Egypt in the middle ages, London 1936. vol. VI.
- The Sarceni art, London.

Quatremére (E.),

- Histoire des Sultans Mamlouk de l'Egypt, Paris 1837-1845.

محتويات البحث

رقم الإيداع

٩٦ / ١١٨٩١

الترقيم الدولي

٩/٩٨٦٥/٠٣/٩٧٧